روايات مصرية للجيب

9

فارس الأندلس

الطريق إلى قرطبة

د. نبيل فاروق



من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١- خيانة ..

تطايرت أوراق الأشجار الجافة ، مع رياح الخريف الهادئة ، فوق السهول الممتدّة إلى مدى البصر ، فى مملكة (غرناطة) ، آخر حصن للعرب فى (الأندلس) ، وبرزت الشمس فى الأفق ، من خلف تلال بلدة (شنتفى) ، بالقرب من الحدود القشتالية ، لتلقى أشعتها الذهبية الدافئة على جواد أسود بلون الليل ، ينطلق كالعاصفة ، لينهب الأرض نهبًا ، فى اتجاه البلدة ، وعلى متنه فارس زنجى ، متين البنية ، صارم القسمات ، مفتول العضلات ، قوى كالزمن ، صامت كالموت ، بدا ممشوق القوام ، على ظهر جواده ، على الرغم من سرعته ، حتى بلغ البلدة ، التى دبّت الحركة فى سوقها الكبير ، مع مشرق الشمس ..

وما إن دخل ذلك الفارس إلى السوق ، حتى التفتت إليه عيون الجميع ، وحملت الشفاه ابتسامة مرحّبة ،

فى حين ارتفعت الأيدى تلقى إليه التحية فى صمت .
على نحو يشف عن كونه شخصية معروفة ومحبوبة . على الرغم من كل الصمت والغموض ، اللذين يحيطان به طوال الوقت ..

أما الفارس ، فقد أبطأ سرعة جواده ، وراح يسير به الهوينى فى السوق ، ليجيب تحية الجميع بإشارة صامتة ، وابتسامة رصينة ، قبل أن يغيب خلف أسوار أحد الأحياء السكنية ، فالتفت أحد رواد السوق إلى رفيقه ، قائلًا :

ـ لقد عاد أخيرًا .. إننا لم نره منذ ما يقرب من ستة أشهر .

أشار إليه الثانى بيده ، وهو يقول :

ـ إنه آت من الشمال .. لا ريب فى أنه يحمل إلى الملك معلومات جديدة عن القشتاليين .

ارتفع حاجبا الأوّل ، وهو يهتف :

ـ هل تعتقد حقًا أنه يعمل لحساب مولانا (ابن الأحمر) ؟!

هزّ الثانى كتفيه ، قائلًا :

ـ ألديك تفسير آخر ؟!

تطلّع الأوّل إلى حيث اختفى الفارس ، قبل أن يتمتم فى خفوت واقتضاب .

ـ كلاّ .

لم يتبادلا بعدها حرفًا واحدًا ، وتشاغلا بعدها بالبيع والشراء ، وكأنهما يرغبان فى إغلاق هذا الحوار نهائيًا ..

أما الفارس ، فقد راح يقطع الطرقات بجواده فى صمت ، حتى بلغ نزلًا صغيرًا ، حمل بابه شعار أحد أمراء (الأندلس) القدامى ، فأوقف جواده عنده ، وهبط عن متنه ، ودلف إلى النزل بقامته الفارهة الممشوقة ، وعضلات صدره القوية البارزة ..

وما إن وقع بصر (حالم) صاحب النزل ، على ذلك الفارس الزنجى ، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يتجه إليه ، قائلًا :

ـ أهلًا يا سيد (فهد) .. مرحبًا بك .

أجاب (فهد) تحيته بإشارة من يده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فأسرع (حالم) يعد له مشروبًا ساخنًا ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ كيف كانت رحلتك إلى (قرطبة) ؟!

أجاب (فهد) باقتضاب ، وبصوت خشن جاف ، بدا وكأنه يأتى من أعماق بئر سحيقة :
- جيدة .
كان (حالم) يدرك أن (فهد) لا يميل إلى الكلام ، وأنه لولا ما يصدر عنه ، بين الحين والآخر ، من كلمات مقتضبة موجزة ، لبدا وكأنه أبكم ، لا يمكنه التحدث بحرف واحد ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عاد يسأله :
- هل علمت ما ينتويه القشتاليون ، فى الأيام القادمة ؟!
رمقه (فهد) بنظرة صارمة ، قبل أن يرتشف مشروبه الساخن فى هدوء ، دون أن يجيب السؤال ، فابتسم (حالم) ، مغمغما :
- اغفر لى فضولى يا سيد (فهد) .
أشار (فهد) بيده إشارة صارمة ، وهو يواصل ارتشاف مشروبه الساخن ، فاتجه (حالم) إلى حجرة صغيرة ملحقة بالمكان ، وهو يقول :
- على أية حال ، لقد وصلت رسالة من الشيخ .
لم يكد (فهد) يسمع العبارة ، حتى هب من مقعده ،

وأزاح ما تبقى من مشروبه الساخن ، وهو يندفع نحو (حالم) ، الذى خرج من تلك الحجرة الصغيرة ، ممسكا رقعة جلدية مطوية . اختطفها (فهد) من يده فى لهفة ، وفردها بسرعة ، والتهم كلماتها القليلة ببصره ، قبل أن يدسها فى حزامه ، ويندفع خارج النزل ، و (حالم) يهتف به :
- إلى أين ؟! إنك لم تنته من مشروبك بعد!
ولكن (فهد) لم يسمعه ..
لقد وثب على متن جواده ، وانطلق به على الفور ، متجاوزا الأحياء السكنية ؛ ليعبر السوق كالصاروخ ، على نحو أثار دهشة الجميع وذعرهم ، فهتف أحدهم :
- ماذا أصابه ؟! لقد اعتدناه هادئا صارما رصينا .
أجابه آخر ، وهو يتابع (فهد) فى توتر بالغ :
- لا ريب فى أنه يحمل أخبارا عاجلة لا بد أن تصل إلى الملك بأقصى سرعة .
- سأله الأول فى قلق :
- أخبار ؟! أية أخبار ؟!
أشار الثانى بيده ، قائلا :

- أخبار القشتاليين .

وكأنما خرج الجواب من بين شفتيه ؛ ليسرى فى السوق كله ، سريان النار فى الهشيم ..

فلم يكد ينهى عبارته ، حتى هبط على السوق كله صمت عجيب ، اشترك فيه الجميع ، دون اتفاق أو رأى مسبق ..

وبحركة تلقائية ، استدارت عيونهم جميعًا إلى الشمال ، وكأنهم يخترقون الزمان والمكان بأبصارهم؛ ليصلوا إلى الحدود ..

حدود الخطر ، بينهم وبين القشتاليين ..

أما (حالم) ، صاحب النزل ، فقد توقف فى مكانه صامتًا ، بعد ذهاب (فهد) ، وقد تعلقت عيناه بباب النزل ، حتى سمع صوتًا من خلفه ، يقول بالإسبانية :

- أحسنت اللعبة أيها العربى .

ازدرد (حالم) لعابه فى صعوبة ، واستدار إلى صاحب الصوت ، مغمغمًا فى توتر :

- حقًا ؟!

برز المتحدث من ركن خفى ، فى تلك الحجرة الصغيرة ، وهو يقول بابتسامة صفراء ، وعينين تتألقان ظفرًا :

- بالتأكيد .

كان يرتدى ثيابًا عربية أندلسية أصيلة ، إلا أن كل شىء فيه ، بخلاف تلك الثياب، لم يكن أندلسيًا أبدًا ..

لقد كان أحمر الوجه ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ، يبدو أشبه بالفرسان الجرمانيين(*) ، منه إلى فرسان (قشتالة) و(ليون) ، الذين يتحدث بلسانهم ، وهو يقول فى ظفر :

- كل شىء كان دقيقًا ، حتى إنه لم يكن من الممكن أبدًا أن يكشف خدعتنا .. لقد استخدمنا نفس الرقع الجلدية ، حتى يخط عليها الشيخ رسائله ، ونجح أحد رجالنا فى تقليد خطه بدقة مدهشة ، على نحو أقنع ذلك الزنجى ، بأن الشيخ يرسله فى مهمة عاجلة إلى (مالقة) ، بدلًا من عودته إلى (غرناطة) ، ولم يكن لدينا شك فى أنه سينطلق لتنفيذ مهمته، دون إضاعة لحظة واحدة ، مما يعنى أن ما لديه من

(*) اسم يطلق على مجموعة من الأجناس الأوروبية، تغلب فى شعوب (السويد) ، و(النرويج) ، و(الدانمارك) ، و(أيسلندا) ، و(ألمانيا) ، و(النمسا) ، و(سويسرا) ، وشمال (إيطاليا) ، و(هولندا) ، (وبلجيكا)

معلومات ، عن الجيش القشتالى وتحركاته ، لن تصل إلى (غرناطة) فى الموعد المناسب ، وهذا يعنى أيضًا أن مفاجأتنا لهؤلاء العرب ستكون كاملة ، و ....

وتألقت عيناه بجذل وحشى ، قبل أن يضيف :

ـ وعنيفة .

قالها ، ثم انطلق يقهقه فى ظفر واستمتاع ، و (حالم) يتطلع إليه فى صمت ، محاولاً أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، بدت على الرغم منه باهتة مرتجفة ، قبل أن ينتزع نفسه من صمته وتوتره ، ويتساءل فى خفوت :

ـ أهذا كل ما تنوونه ، بشأن (فهد) ؟!

صمت الجرمانى بضع لحظات ، قبل أن يبتسم فى مكر ، قائلاً :

ـ ليس بالضبط .

ثم صبَّ لنفسه كأسًا من الخمر ، وهو يتابع :

ـ ذلك الزنجى مقاتل عربى شرس ، وفى كل مرة اصطدم فيها برجالنا ، كانت خسارتنا فادحة ، وليس من مصلحتنا أن نسمح له بالاصطدام بهم مرة أخرى ،

وخاصة فى المرحلة القادمة ، التى نستعد فيها للغزوة الكبرى .

امتقع وجه (حالم) ، وهو يغمغم بصوت مرتجف :

ـ ولكن (فهد) ليس خصمًا هينًا .. إنك ستحتاج إلى جيش كامل لقتله .

هتف الجرمانى من دهشة :

ـ قتله ؟!

ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى ، قبل أن يستطرد فى سخرية :

ـ إن آخر ما نسعى إليه هو قتله يا رجل .

سأله مبهوتًا :

ـ ماذا ستفعلون به إذن ؟!

جرع الجرمانى كأسه دفعة واحدة ، قبل أن يقول بابتسامة ساخرة ، ولهجة صارمة للغاية :

ـ ليس هذا من شأنك .

احتقن وجه (حالم) ، ودون أن ينبس ببنت شفة لبضع لحظات ، صبَّ الجرمانى خلالها لنفسه كأسًا أخرى ، ألقاها فى جوفه دفعة واحدة ، على نحو جعل (حالم) ينتزع نفسه من توتره ، ويتساءل فى حذر :

- قل لى يا سيد (هيلموت) : إنك لست قشتاليًا ، فلماذا تفعل كل هذا ؟

انتزع الجرمانى صرة من حزامه ، وهو يقول فى سخرية :

- لنفس السبب ، الذى تفعله من أجله أيها الأندلسى .

وألقى إليه الصرة ، مستطردًا :

- الذهب .

قالها ، وانطلق يقهقه مرة أخرى فى سخرية ..

وفى ظفر ..

* * *

على الرغم من أن (فهد) لم يكن قد استرد عافيته كاملة ، بعد رحلته المرهقة ، من (قرطبة) إلى (شنتفى) ، إلا أن رسالة الشيخ الزائفة جعلته ينطلق بجواده بأقصى سرعته ، فى طريقه إلى (مالقة) ، فى محاولة لبلوغها قبل شروق شمس الغد ، كما طلبت الرسالة ..

لم يكن يدرى طبيعة مهمته بالضبط ، ولكن الرسالة

أكدت ضرورة لقائه هناك بشخص محدد ، حددت صفاته وسماته ، والاسم الذى سيقدم نفسه به ..

وعلى الرغم من كل ما يشعر به ، من تعب وإرهاق ، لم يكن من الممكن أبدًا أن يضيع (فهد) لحظة واحدة ، دون أن ينفذ أوامر الشيخ ..

فبالنسبة إليه ، كانت هذه الأوامر أشبه بالقدر ..

لا يمكن رده ..

أو حتى مناقشته ..

مهما كانت الأسباب ..

حتى جواده المرهق نفسه ، لم يبد أى تمرد أو اعتراض ، وهو يواصل الانطلاق بأقصى سرعته ، عبر الحقول والوديان ، وكأنما أدرك بدوره أهمية وخطورة مهمة راكبه وحتميتها ..

وعلى الرغم من حرارة الجو ووعورة الطريق ، لم يتوقف الجواد وراكبه لحظة واحدة ، خلال ساعة كاملة ، من أجل شربة ماء ، أو قليل من الراحة ..

حتى لاح ذلك الركب من الفرسان من بعيد ..

كانوا اثنى عشر فارسًا ، فى ثياب أندلسية ، تشف عن الثراء وكريم المحتد ، على نحو أثار انتباه (فهد)



ولكن الفرسان لم يتوقفوا لحظة واحدة ..
لقد انطلقوا نحوه مباشرة ، وكأنهم يستهدفونه بالذات ..

واهتمامه ، فخفض من سرعة جواده ، وهو يفحصهم ببصره فى سرعة وحذر كعادته ..

ولكن الفرسان لم يتوقفوا لحظة واحدة ..

لقد انطلقوا نحوه مباشرة ، وكأنهم يستهدفونه بالذات ..

وبحركة غريزية ، أمسكت يد (فهد) مقبض سيفه ، وضاقت عيناه فى تحفز ، وهو يوقف جواده ، ويشد قامته فوقه باعتداد ، وصدره العارى يلتمع تحت ضوء الشمس ، والركب يقترب منه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندما صار على قيد عشرة أمتار منه ، لوح أحد الفرسان بيده ، هاتفا بلغة عربية ، ولهجة أندلسية سليمة :

- أيها الزنجى .. هل يمكنك أن تدلنا على الطريق إلى (شنتقى) .

أما باقى الفرسان ، فقد خفضوا سرعة جيادهم ، وإن لم يحاولوا التوقف ، وراحوا يدورون حول جواد

(فهد) ، وهم يتشاغلون بالتطلع إلى الوديان الخضراء الممتدة إلى مدى البصر ..

وفى حذر زائد ، ودون أن تترك يده مقبض سيفه ، راحت عينا (فهد) تتابعان الفرسان فى توتر ، وهو يجيب الفارس الأول فى حزم ، وبصوت عميق غليظ :

- إلى الشمال الشرقى .. اتبع الـ ...

قبل أن يتم عبارته ، استل الفرسان الاثنا عشر سيوفهم فجأة ، وانطلقت من حلوقهم صرخة قتالية ، تتعارض تماما مع الثياب التى يرتدونها ..

صرخة قشتالية محضة ..

وكرجل واحد ، انقضوا على (فهد) ، من كل الاتجاهات ..

وهنا ، ارتجت المنطقة كلها بصرخة هادرة ..

صرخة انطلقت من حلق (فهد) ، وهو يمتشق حسامه من غمده ، وينقض بدوره كالصاعقة ..

كان القشتاليون ، المتنكرون فى هيئة أندلسية ، يحيطون به من كل جانب ، وسيوفهم تنقض من كل اتجاه ، إلا أن سيفه راح يدور حوله كالإعصار ،

فيصد سيفا ، أو يضرب عنقا ، أو يغوص فى صدر ، ليمزق قلب أحد القشتاليين ..

وعلا صليل السيوف ..

وتفجرت الدماء فى عنف ..

وانطلقت صرخات (فهد) الصارمة ، وصرخات القشتاليين المتألمة ..

ثم فجأة ، تراجع من تبقى منهم ..

تراجعوا فى آن واحد ، على نحو يوحى باتفاق مسبق ..

وقبل أن يدرك (فهد) لماذا حدث هذا ، وقعت عيناه على أربعة من القشتاليين ، يندفعون نحوه بخيولهم ، وقد أمسكوا فيما بينهم شبكة كبيرة ، أشبه بشباك الصيادين ..

وعلى الفور ، فهم (فهد) الموقف كله ..

وبكل قوته وسرعته ، جذب عنان جواده ، محاولا الإفلات من الفخ ..

ولكن القشتاليين الآخرين عادوا ينقضون بسيوفهم .

كان فخا محكما بحق ، اضطر المقاتل العربى الأسود إلى اتخاذ مسار محدود ..

نفس المسار الذى أرادوه بالضبط .

وبمنتهى العنف ، ارتطمت به الشبكة ، بخيوطها المعدنية الثقيلة ، وانتزعته من على متن جواده ، لتلقى به أرضًا فى عنف ، وتحيط به فى قوة ، وهو يقاومها فى استماتة ، محاولا رفع سيفه لتمزيق خيوطها المعدنية ..

وفى هذه المرة ، انقض عليه القشتاليون بكل العنف والشراسة ..

وبهراوات ضخمة ، راحوا ينهالون على جسده ، وهو يطلق صرخاته الثائرة الغاضبة ، التى رددتها وديان (غرناطة) كلها ..

وانطلق صهيل الجواد الأسود ، وهو ينقض على القشتاليين ، وارتفعت قائمتاه الأماميتان ، لتهويا بحافريه القويين على صدر أحدهما ..

ثم استدار إلى الثانى ..

وصرخ القشتالى الثانى ، وهو يستل سيفه :

ـ اللعنة ! الجواد يدافع عن صاحبه ..

أطلق صرخته ، وهو يضرب بسيفه بكل قوته ..

وفى سرعة مدهشة ، تراجع الجواد كفارس

مقاتل ، ومال برأسه فى رشاقة وبراعة مدهشتين ، لتفادى ضربة السيف ..

وعلى الرغم من دهشتهم ، انقسم من تبقى من فريقى القشتاليين إلى فرقتين صغيرتين ..

الأولى واصلت ضرب (فهد) بهراواتها الثقيلة ، والثانية امتشقت سيوفها ، وانقضت بها على جواده..

وتراجع الجواد المدرب أكثر وأكثر ، وانطلق صهيلة الثائر مرات ومرات ، وهو يتفادى ضربة سيف هنا ، وأخرى هناك ..

أما (فهد) ، فقد راح يقاوم ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

ولكن الخيوط المعدنية للشبكة القوية ، كانت تحبط مقاومته بشدة ..

والهراوات الثقيلة كانت تهوى على رأسه فى عنف ..

ثم جاءت الضربة ، التى ارتج لها رأسه فى عنف ..

ومادت به الأرض ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، و ...

وفقد الوعى ..

وأطلق جواده صهيلاً قويا آخر ، وضرب الهواء بقائمتيه مرتين ، قبل أن يدور حول نفسه ، متفاديًا الضربات الأخيرة لسيوف القشتاليين ، ثم ينطلق مبتعدًا بأقصى سرعته ، وقوائمه تنهب الأرض نهبًا ..

ولثوان ، تجمّد الموقف كله ، وعيون القشتاليين تتابع الجواد المبتعد ، قبل ان يلتفت أحدهم إلى (فهد) فى سرعة ، ويحدجه بنظرة عصبية ، وكأنما يتوقع أن يهبّ من غيبوبته ، وينقضّ عليهم مرة أخرى ..

وعندما طال صمت (فهد) وسكونه ، وأيقن الجميع من غيبوبته ، هتف أحدهم فى توتر :

ـ أخيرًا .. لقد تصوّرت لحظة أنه سيقتلنا جميعًا.

هتف آخر :

ـ كيف يصنع الأندلسيون أمثاله ؟! إنه يقاتل كالوحوش !

غمغم ثالث فى عصبية ساخطة ، وهو يدير عينيه فى جثث رفاقه :

ـ لقد فقدنا ستة رجال ، قبل أن نظفر به .

هتف رابع فى حدة ، وهو يلوّح بسيفه :

ـ دعونا نقتله ، جزاء ما اقترفت يداه :

اعترض الأوّل طريقه ، هاتفا فى صرامة :

ـ ويحك يا رجل .. الفارس (هيلموت) أمر بإلقاء القبض عليه حيًا ، والملك (فرناندو) أمرنا بطاعة الفارس (هيلموت) ، باعتباره قائد المهمة .

قال الرابع فى عصبية :

ـ إنكم تقدرون ذلك الجرمانى بأكثر مما يستحق .

أجابه الأوّل ، وهو يجذب من سرجة بعض الأغلال المعدنية ، ويتجه بها نحو (فهد) :

ـ إننا نطيع أوامر مليكنا .

تعاون الأربعة على تقييد معصمى (فهد) وكاحليه بالأغلال ، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة ، وما إن نهضوا ، بعد انتهائهم من هذا ، حتى بدا لهم فارس يقترب من بعيد ، أمكنهم تمييزه وتعرّفه على الفور ، فوقفوا صامتين ، حتى بلغهم ، وتألقت عيناه فى ظفر ، وهو يتطلّع إلى (فهد) الفاقد الوعى ، قبل أن يقول :

ـ فقدتم ستة رجال ، وظفرتم به .. عظيم .. كنت أتوقّع خسارة ثمانية رجال ..

لم يرق لهم أسلوبه ، فتبادلوا نظـرة عصبيـة ، جعلته يقول فى صرامة :

ـ هيا .. سندفن موتانا ، حتى يتسنى لنا أن نعود بسرعة ، فالطريق طويل يا رجال .

غمغم أحدهم :

ـ الطريق ؟!

التفت (هيلموت) إلى الشمال ، وتألقت عيناه فى ظفر ، وهو يجيب :

ـ نعم يا رجـل .. الطـريق .. الطـريق إلـى (قرطبة) ..

قالها ، وتألقت عيناه فى ظفر أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

٢ـ قفص الفهد ..

تهللت أسارير (فـارس) ، وجـواده ينهب الأرض نهبًا ، إلى جوار جواد (مهـاب) ، وبـدت كلماتـه مفعمة بالمرح والسعادة ، وهو يهتف :

ـ ستكون مفاجأة رائعة لعزيزنا (فهد) ، أن نلتقى بـه فى (شنتفى) .. أأنت واثق من أنـه لا يتوقـع حضورنا ؟!

أجابه معلم السلاح (مهاب) فى حزم :

ـ بكل تأكيد .. نحن أنفسنا لم نكن نعلم أننا سنأتى إلى هنا ، فما بالك به ؟!

لاحـت لهمـا أسـوار (شـنتفى) مـن بعيـد ، فهـز (فارس) رأسه ، قائلا :

ـ الواقع أننى لست أدرى لماذا طلب منا الشيخ اللحاق بـ (فهد) فى (شنتفى) .. لقد استيقظ والقلق محفور فى ملامحه ، وظل مهمومًا بعض الوقت ، ثم لم يلبث أن طلب منا فى إلحاح ، أن نذهب للقاء (فهد) هنا .

ثم سأل فى اهتمام :

- أهو حلم رآه ؟!

هزّ (مهاب) رأسه فى حزم ، وقال :

- مستحيل ! شيخنا رجل عركته الأيام ، وأكل منه الدهر وشرب ، وهو ليس بالرجل الذى يتخذ قرارًا كهذا لحلم رآه ، ولا حتى لكابوس أقضّ مضجعه .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- هناك شىء ما حتمًا .. شىء بلغه ، أو رآه أو سمعه .. المهم أنه لم يتخذ قراره هذا عبثًا .

بدت الحيرة بضع لحظات على (فارس) ، قبل أن تكتسب ملامحه صلابة واضحة ، ويقول فى حزم :

- أنت لا تعرفه مثلما أعرفه .

بلغا أسوار (شنتفى) ، فى تلك اللحظة ، فأشار إليه (مهاب) بالصمت ، وهما يجتازان أبواب المدينة ، ويعبران سوقها بجواديهما ، فى طريقهما إلى نزل (حالم) ..

وفى اهتمام شديد ، تبعتهما عيون رواد السوق ..

فلأن (شنتفى) هى أقرب مدن (غرناطة) إلى الحدود ، اعتاد أهلها التطلع إلى كل قادم جديد بشك وحذر ، وهم يتساءلون عما إذا كان عدوًا أم صديقًا .. أندلسيًا أم قشتاليًا ..

تاجرًا أم متسوقًا ..

أم مقاتلا ..

فبعد أكثر من نصف قرن ، من التواجد العربى فى (الأندلس)(*) ، لم يعد من السهل تمييز العربى عن القشتالى ..

التزاوج بين الجنسين أنجب أجيالا جديدة ، حملت ملامح عربية قشتالية أندلسية ..

ملامح اشترك فيها الجميع تقريبًا ..

حتى اللغة ، صارت أمرًا متداولا بين الطرفين ..

معظم العرب صاروا يتحدثون الأسبانية بطلاقة ..

ومعظم الأسبان يتحدثون العربية ..

بل يمكن القول إن اللغتين قد امتزجتها ببعضهما

(*) فتح العرب (الأندلس) (عام ٧١١م) ، وكانت تعرف عندئذ باسم (فندالشيا) ، وكان عهدهم عهدًا ذهبيًا ، ازدهرت فيه التجارة والصناعة والزراعة والتعدين ، وأصبحت خلاله (قرطبة) ، و (أشبيليه) ، و (غرناطة) مراكز مشهورة للثقافة والعلم والفن ، ولا يزال تأثيرهم واضحًا فى عادات السكان ولغتهم حتى اليوم ، ولقد استعاد الأوروبيون (الأندلس) ، عام (١٤٩٢م) .

حتى صنعتا لغة جديدة ، يسهل على الطرفين فهمها ، والتحدث بها ..

لغة أندلسية خاصة ..

وهذا لا يعنى أن العربية قد تراجعت ..

أو حتى الأسبانية ..

لقد احتفظت كل لغة بأصالتها ، وأدبها ، وفنونها ، وتاريخها ، وتراثها ..

ونشأت أيضًا تلك اللغة الجديدة ..

لغة العامة ، كما يمكننا أن نصفها ..

ولن نكون مبالغين ، لو قلنا إن معظم الأنظار قد اتجهت إلى (فارس) دون (مهاب) ..

ليس لأنه شاب جميل المحيا ، وسيم الطلعة ، ممشوق القوام ، متين البنيان فحسب ..

وليس لأنه يرتدى ثيابًا بيضاء ناصعة ، لم يعتد أحدهم رؤيتها ..

ولكن لأنه كان يمتطى جواده على نحو غير مألوف على الإطلاق ، فى ذلك العصر ..

لقد كان يمتطيه دون سرج أو لجام ، وعلى نحو يشفّ عن براعة الفارس ، وأصالة الفرس نفسه ،

الذى سار بعنق قوى ، ورأس مرفوع ، وحوافر تضرب الأرض فى قوة وانتظام ..

ولأن معظمهم ما زالوا يذكرون تلك الروايات ، التى يتناقلها الجميع عن أمير (قرطبة) ، وعن شجاعته وقوته ، وتاريخه المجيد ، قبل أن يلقى مصرعه غدرًا ، على يد القشتاليين ، فقد راحوا يتهامسون حول ذلك الزى الأبيض ، الذى يشبه تمامًا ما نقله الرواة ، عن زى الأمير الراحل ..

وفى هدوء حازم ، ودون أن يلتفت إلى (فارس) ، قال (مهاب) :

- يبدو أنهم قد تعرّفوك يا فتى .

انعقد حاجبا (فارس) ، وهو يتساءل :

- تعرّفوا ماذا بالضبط ؟!

صمت (مهاب) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى صرامة :

- تاريخك .

لم يحاول (فارس) سؤاله عما يعنيه ، وقد أدرك بخبرة السنوات الماضية ، أن (مهاب) لن يجيب أسئلته ، بأى حال من الأحوال ..

ثم إن تلك السنوات نفسها قد جعلته يفهم ما الذى يعنيه الجميع ..

يفهمه ويستوعبه جيدًا ..

ولكنه لم يتحدث عنه أبدا ..

ولن يفعل ، ما لم تضطره الظروف لهذا..

ولأنه قد قرر تجاهل الأمر ، فقد عبر السوق مع (مهاب) فى صمت ، حتى بلغا تلك المنطقة السكنية ، وتوقفا بجواديهما عند نزل (حالم) ، ومهاب يقول :

- هذا هو النزل ، الذى وصفه لنا الشيخ .. المفترض أن يكون (فهد) داخله الآن .

هبط الاثنان عن متن جواديهما ، ودلفا إلى النزل ، الذى اكتظ بالرواد ، فى تلك الساعة ، التى نشطت فيها حركة الأسواق ، وتوافد العديدون للارتواء بمشروب حلو ، أو بعض الأعشاب الساخنة المغلية ، التى تفيد القلب والمعدة ، والتى اشتهر بها نزل (حالم) بالتحديد ..

وما إن دخل (فارس) و (مهاب) إلى المكان ، حتى اتجهت العيون كلها إليهما فى قلق حذر ، فارتسمت على شفتى (فارس) ابتسامة هادئة ودود ، وهو يقول :

- طاب صباحكم يا سادة .

كان لهدوئه ووسامته وابتسامته أثر كالسحر ، فى نفوس رواد النزل ، الذين انطلقوا يردون تحيته فى حرارة ، فيما عدا (حالم) نفسه ، الذى رمق الاثنين فى توتر ، وهو يسألهما فى حذر :

- بمَ يمكننى خدمتكما ؟!

أشار إليه (مهاب) ، قائلا :

- كل ما نحتاج إليه هو قليل من الماء ، وإجابة سؤال واحد .

رمقهما (حالم) بنظرة متوترة أخرى ، ثم التقط دورق المياه ، وصبَّ منه قدحين لهما ، وهو يقول :

- الماء حق للجميع ، أما الجواب ..

لم يتمّ عبارته ، ولكن (مهاب) ابتسم ، قائلا :

- ربما كان الجواب أسهل من الماء .

ثم مال نحوه ، هامسًا :

- أين (فهد) ؟!

لم يكد الرجل يسمع الاسم ، حتى انتفض جسده فى عنف ، وكأنما هوت على رأسه نيران السماء ، واخترقت جسده إلى قدميه ، وتراجع بحركة حادة ،

أسقطت الدورق من يده ، ليتحطم بين قدميه ، وهو يهتف بكل انزعاج وذعر الدنيا :

ـ (فهد) ؟!

انعقد حاجبا (فارس) فى توتر ، وتبادل نظرة سريعة مع (مهاب) ، قبل أن يقول للرجل فى صرامة :

ـ نعم يا رجل .. (فهد) .. ذلك الزنجى القوى ، الذى يحضر إلى هنا ، كل حين وآخر .. الجميع يعرفونه ، ولست أظنك بالذات تجهله .

اتسعت عينا (حالم) فى هلع ، وهو يحدق فيهما ، قبل أن يزدرد شيئا من لعابه فى صعوبة ، عبر حلقه الجاف ، قائلا بصوت مرتجف :

ـ آه .. (فهد) .. إنه لم .. لم يحضر اليوم .

كان جوابه ، بالطريقة التى نطقه بها ، ونظرات الذعر والهلع فى عينيه ، أشبه بدليل إدانته ، جعل (مهاب) يمسكه من قميصه ، ويشده إليه فى غضب صارم ، وهو يكرر :

ـ أين (فهد) يا رجل ؟!

لوح (حالم) بذراعيه فى ارتياع ، وهو يصرخ :



لم يكد الرجل يسمع الاسم ، حتى انتفض جسده فى عنف ، وكأنما هوت على رأسه نيران السماء ..

- لست أدرى .. إننى لم أره .. أقسم إننى لم أره اليوم .

ثم التفت إلى رواد النزل ، صائحا :

- النجدة يا قوم .. النجدة .. إنهما يضمران لى شراً .

وقبل حتى أن ينتهى نداؤه ، كان كل رواد النزل قد هبوا من مقاعدهم ، وقفزت يد كل منهم إلى مقبض سيفه ، للذود عن الرجل الذى استنجد بهم ..

وبسرعة البرق ، امتشق (مهاب) سيفه ، وصاح بصوت صارم قوى :

- من يسع لمصرعه فليسحب سيفه .. والله لأقطعن كل رقبة تدور فى نطاق سيفى ، دون شفقة أو رحمة .

ومع قوله ، استلّ (فارس) سيفه بدوره ، وعلى الرغم من أنه لم ينبس ببنت شفة ، إلا أن تلك النظرة الصارمة القاسية المحذرة المتوعدة ، المطلة من عينيه ، جعلت قلوب الجميع ترتجف فى صدورهم ، وأيديهم تتجمد على مقابض سيوفهم ، وعيونهم تدور فى محاجرها ، فى حيرة وتوتر وتردد ، فى حين تابع (مهاب) ، بنفس الصوت القوى الصارم :

- نحن لا نسعى لإيذاء أحد ، أو الاستيلاء على ما لا نملك أو نستحق .. لقد أتينا للبحث عن رفيقنا ، الذى نثق تماما بأنه قد جاء إلى هنا هذا الصباح ، وذلك الرجل يدرك هذا جيدًا ، ولكنه يخفى أمرا ما ، يخشى أو يهاب البوح به .

تبادل الرجال نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يهتف أحدهم فجأة :

- إننى أعرفك يا هذا .

ثم انفصل عن الآخرين ، وتقدم نحو (مهاب) ، وتطلع إلى وجهه فى اهتمام وتمعن ، قبل أن تتهلل أساريره ، ويهتف فى حماس :

- رباه ! إنك هو .. أنت قائد الفرسان .. مولاى (مهاب) .

تردد الاسم بين حلوق الحاضرين فى انبهار ، قبل أن يتدافعوا نحو (مهاب) ، وهم يهتفون باسمه ، على نحو جعل (حالم) يتراجع مذعورا ، ثم ينحنى ليختبئ خلف طاولة البار ..

وفى رشاقة مدهشة ، عبر (فارس) الطاولة بقفزة واحدة ، وقبض على عنق (حالم) ، قائلا فى صرامة :

- إلى أين أيها الحقير ؟!
صرخ (حالم) فى رعب :
- إننى لم أفعل شيئا .. أقسم لك .
ومع ارتجاجة جسده ، المذعور ، التقطت أذنا (فارس) رنين الذهب فى حزامه ، فالتقط الصرة بحركة سريعة ، هاتفا فى غضب :
- ما هذا إذن .. رصيد النزل هذا الصباح ؟!
امتقع وجه (حالم) ، وشحب ، وارتجفت يداه وهو يحاول استعادة صرة الذهب ، هاتفا بصوت مختنق :
- ذهبى .. أعد إلىّ ذهبى .
جذب (فارس) حزام الصرة ، ثم أفرغها على طاولة البار ، هاتفا :
- دعنا نلق عليه نظرة أولا .
واتسعت عيون الجميع ، وهم يحدقون فى العملات الذهبية العديدة ، التى حملت على وجهيها نقشا لصورتى (فرناندو) و (إيزابيلا) ، ملكى (قشتالة) و (ليون) ، و (فارس) يقول فى غضب صارم :
- عجبا ! إنه ذهب قشتالى يا رجل .

ثم مال يجذب (حالم) من عنقه ، ويجبره على النهوض ، وهو يستطرد :
- أى عمل حقير ، حصلت من أجله على هذا الذهب القشتالى يا رجل ؟! وأين (فهد) ؟! أهذا ثمن خيانتك له ؟!
صاح (حالم) بوجه شاحب كالموتى :
- إنه لم يأت .. أقسم لكما .
وهنا اندفع أحد الحاضرين ، يقول فى حزم :
- لو أنكما تقصدان ذلك الزنجى العملاق ، الذى يمتطى جوادا كالليل البهيم . فقد جاء هذا الصباح .
ثم أدار عينيه إلى (حالم) فى صرامة ، مستطردا :
- وأتى إلى هنا .
استدار (مهاب) عندئذ إلى (حالم) ، بكل غضب وصرامة الدنيا ، ووضع سيفه على عنقه ، صارخا :
- أين (فهد) أيها الحقير ؟! ماذا فعلت به ؟!
خرّ (حالم) ساجدا على ركبتيه ، وراح يصرخ برعب هائل :
- الرحمة .. الأمان .. الأمان يا قائد الفرسان .
صرخ فيه (مهاب) :

- قل لى أين (فهد) ، وإلا فلا تنشد رحمة أو أمانا .

انهار (حالم) ، وهو يقول بصوت شاحب كالقبور :

- سأخبرك يا قائد الفرسان.. سأخبرك بكل شىء..

ثم راح يروى لهما ما حدث ..

وبكل التفاصيل..

* * *

كل شىء بدا هادئا ، فى ذلك المعسكر الصغير البسيط ، خارج أسوار (غرناطة) ، وفى بساطة ورصانة ، راح الشيخ يعد طعامه، مرتديًا ثوبًا بسيطًا، لا يتناسب قط مع ما كان يرفل فيه من فاخر الثياب ، أيام كان وزيرًا أثيرًا مقربًا لأمير (قرطبة) ..

كان يؤدى عمله فى صمت ، وإن شفت كل خلية من خلاياه عن قلق خفى ، وهموم حفرت ملامحها وسط تجاعيد سنوات العمر الطويل ..

ففى أعماقه ، لم تكن نبرة القلق ، التى تصاعدت منذ يومين مضيا ، قد خفتت بعد ..

هناك شىء غير طبيعى ، يحيط بالموقف فى (شنتفى) ..

لقد أرسل رسالة عاجلة ، بوساطة الحمام الزاجل ، إلى وسيطه هناك ، دون أن يتلقى جوابا شافيا كالمعتاد ..

أو حتى أى جواب ..

وهذا لم يحدث قط ، منذ بدأت هذه الاتصالات ، فى عهد (طوقان) ، والد (حالم) ..

لم يحدث إلا فى هذه المرة ، بعد موت (طوقان) ..

وهذا يثير قلقه ..

وشكوكه ..

وبشدة ..

صحيح أنه كان يعرف (طوقان) منذ حداثتهما ..

ولكن هذا لا ينطبق على (حالم) ..

ثم إن الفارق بين الاثنين .. (طوقان) و (حالم) ، فارق كبير للغاية ..

فـ (طوقان) عاش حياته كلها فى (قرطبة) ، وشهد سنوات كثيرة من اللمحة الأخيرة لمجد العرب فى (الأندلس) ..

أما (حالم) ، فقد جاء مع النهاية ..

نهاية عصر نهضة (الأندلس) ..

ونهاية حكم العرب فى (قرطبة) ..

جاء مع ارتفاع راية (قشتالة) و (ليون) ..

وانحسار الراية العربية ..

ولأن أمه أندلسية، وليست عربية الأصل والمنشأ ، لم يولد (حالم) بانتماء عربى صرف ..

ومع نموه ، صار أكثر ميلاً لكل ما هو غير عربى ..

ولكنه أخفى هذا فى أعماقه ..

أخفاه بكل ما ورثه من خبث وذكاء ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد شعر به الشيخ فى أعماقه ..

شئ ما ، فى خبرته وتاريخه ، انتزع منه أى شعور بالارتياح ، تجاه ابن (طوقان) ..

والشئ نفسه ، جعله يشعر بذلك القلق ، عندما تأخرت رسالة (شنتفى) ..

ومن هذا المنطلق ، أرسل (فارس) و (مهاب) إلى (فهد) ..

حركة خافتة للغاية ، على مسافة ثلاثة أمتار إلى اليسار ، أوقفت سيل أفكاره بغتة ، وجعلته يثب فى خفة ، لا تتناسب مع سنوات عمره ، وذلك الشعر

الأشيب الوقور ، الذى يكسو رأسه ولحيته ، واختطف سيفه ، واستدار به نحو مصدر الصوت ، وهو يشهره فى تحفز متوتر ..

« رويدك أيها الوزير .. إنه أنا »

لم يكد الشيخ يلتقط صوت أمير (غرناطة) ، حتى انخفض سيفه بسرعة ، وارتفع صوته المتهدج ، وهو يقول :

ـ مولاى (ابن الأحمر) .. اغفر لى تسرعى ، ولكن من منا لا يفتقر إلى الأمان ، فى هذا الزمان ؟!

وافقه أمير (غرناطة) بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ صدقت .

ثم هبط عن متن جواده ، وتلفت حوله ، قبل أن يتساءل :

ـ أوحيد أنت هنا ؟!

أجابه الشيخ فى وقار :

ـ من بلغ مثل عمرى، لا يخشى الوحدة يا مولاى .

ابتسم الأمير (ابن الأحمر) ، وقال :

ـ كنت أتساءل : أين (فارس) و (مهاب) .

تنهد الشيخ ، مجيبًا :

ـ المفترض أن يكونا فى (شنتفى) الآن .

التفت إليه الأمير ، مغمغما ، فى مزيج من التساؤل والتوتر:

- (شنتفى) ؟! الآن ؟!

ثم اتخذ مجلسه ، على حجر قريب ، وتساءل :

- هل من أخبار جديدة عن القشتاليين ؟!

أجابه الشيخ فى رصانة:

- إنهم يستعدون لضربة كبرى .

اعتدل الأمير ، متسائلاً فى قلق شديد :

- كيف ؟!

صمت الشيخ لحظة ، قبل أن يجيب :

- هـذا ما أنتظر معرفتـه، فى غضون أيام قلائل .

ردد الأمير :

- ما ننتظـر معـرفتـه ؟! تـرى أهـذا ما أرسـلت (فارس) و (مهاب) إلى (شنتفى) بشأنه ؟!

أومأ الشيخ برأسـه إيجابا ، فانعقد حاجبا الأمـير بشدة ، وهو يقول :

- ترى ماذا كانت (غرناطة) ستفعل دونك ؟!

ثم نهض ، مستطردا فى حزم :

- أنـت على حـق أيهـا الوزيـر .. لا أحـد يشـعر بالأمان ، فى هذا الزمان ، لذا ..

بتر حديثه ، وفرقع سبابته وإبهامـه ، فبرز ثلاثـة فرسان أشداء من بين الأشجار ، أشار إليهم الأمير ، قائلاً :

- سـتظل فى حراسـتهم ، حتى يعـود (فـارس) و (مهاب) .

غمغم الشيخ متبرمًا :

- لست فى حاجة إلى حراسة خاصة .

ابتسم الأمير، وهو يمتطى صهوة جواده ، مجيبًا :

- بالتـأكيد .

ثم أشار إلى الفرسان الثلاثة ، قائلاً فى صرامة :

- الوزير هو سيدكم الآن .. كل أوامره مطاعة .

حنوا رءوسهم صاغرين ، فـى حين التفت الأمـير إلى الشيخ ، مستطردا :

- عندما يعود (فـارس) ، أخبره أننـى أريده فـى قصرى على الفور .

وجذب عنان جواده ، مضيفا فى حزم :

- عندى له مهمة .. مهمة خاصة جدًا .

قالها ، وانطلق بجواده يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

★ ★ ★

امتدت السهول الخضراء وارفة مشرقة ، فى ذلك الصباح ، وساد هدوء تام المنطقة ، حتى بدت أصوات الطيور وحشرات الحقول واضحة ، و ...

وفجأة ، لاحت سحابة غبار من بعيد ..

وراحت تقترب بسرعة ..

بسرعة كبيرة للغاية ..

ثم برز فارسان فى وضوح ، على متن جواديهما ، ينهبان الأرض نهبًا ..

فارسان عربيان أصيلان ..

كانا ينطلقان بكل حماس وانفعال الدنيا ، وقد ارتسمت على وجهيهما صرامة مخيفة ، لو وقع عليها بصر أعدائهما ، لسقطت قلوبهم بين أقدامهم ، من فرط الهلع والرعب ..

وعلى الرغم من سرعة الفارسين ، جذب أحدهما معرفة جواده فى قوة ، وضغط بطنه بفخذيه ، وهو يهتف :

ـ هنا يا (رفيق) .. هنا .

غرس الجواد العربى الأبيض الأصيل حافريه الأماميين فى الأرض ، وفرد صدره القوى إلى الأمام ، وهو يطلق صهيلاً قويًا ، فى حين جذب (مهاب) عنان جواده ، هاتفا :

ـ لماذا نتوقف يا (فارس) ؟!

وثب (فارس) عن صهوة (رفيق) ، وهو يتجه نحو بقعة من الأرض ، قائلا :

ـ انظر هناك .. لقد نشب قتال عنيف ، عند تلك الشجرة الكبيرة .

قفز (مهاب) عن جواده بدوره ، واتجه إلى البقعة نفسها ، وفحص الآثار فى اهتمام ، ثم غمغم ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ اثنا عشر رجلا .. بل ستة عشر .. أربعة منهم انطلقوا متوازين .

قال (فارس) فى توتر :

ـ وكانوا يحملون شيئا ، بلغت أطرافه الأرض .

انحنى (مهاب) يمس تلك الآثار ، مكملا :

ـ شىء يتكون من خيوط ثقيلة .

انعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، وهو يقول فى حزم :

ـ شبكة من المعدن .

انعقد حاجبا (مهاب) بدوره ، وارتفعت عيناه تتابعان أثرا واضحا على الأرض ، وهو يقول فى عصبية :

ـ الجواد دافع عن صاحبه فى بسالة .

قالها ، والتقت عيناه بعينى (فارس) ، وانطلقت من عيونهما صاعقة من الحزم والغضب والإصرار ، و (مهاب) يضيف :

ـ الشمال الشرقى .. ثلاث ساعات تقريبًا .

وكان هذا آخر ما تبادلاه من حديث ، قبل أن يندفع كل منهما إلى جواده ، ويثب إلى صهوته ، ثم ينطلق الجوادان ينهبان الأرض نهبًا ، فى الطريق إلى حيث انطلق القشتاليون بأسيرهم ..

الطريق إلى (قرطبة) ..

* * *

« توقفوا » ..

انطلق الهتاف من حلق (هيلموت) فى صرامة ،



ـ الشمال الشرقى .. ثلاث ساعات تقريبًا .
وكان هذا آخر ما تبادلاه من حديث قبل أن يندفع كل منهما ..

وهو يجذب عنان جواده فى قوة ، فتوقف الركب القشتالى دفعة واحدة ، حتى كاد (فهد) الفاقد الوعى يسقط عن الجواد ، الذى وضعوه فوقه ، لولا أن أمسك به أحد الفرسان القشتاليين ، وهو يقول فى خشونة فرضها جفاف حلقه الشديد :

ـ لماذا نتوقف الآن أيها الجرمانى ؟! الجياد بمقدورها أن تواصل العدو حتى الغروب ، وكلنا أقوياء ، و ...

قاطعه (هيلموت) فى صرامة :

ـ لا تناقش أوامرى .

انعقد حاجبا القشتالى فى غضب ، وهم بقول شىء ما ، ولكن (هيلموت) جذب عنان جواده ، ليميل نحوه ، وهو يستطرد فى صرامة أكبر:

ـ وعندما تتحدث إلىّ ، فى المرة القادمة ، حاول أن تتذكر أننى هنا بأوامر من مليكك مباشرة ، وهذا يعنى أن تخاطبنى بلقب القائد ، وليس بالإشارة إلى جنسيتى .. أهذا مفهوم ؟!

ازداد انعقاد حاجبى القشتالى ، وأطلت من عينيه نظرة عصبية غاضبة ، وقفزت يده بحركة غريزية إلى مقبض سيفه .. و...

ـ وبدا وكأن الغيوم تنعقد على رءوس الجميع ...

ولكن تلك النظرة الباردة ، الصارمة ، القاسية ، المطلة من عينى (هيلموت) ، لم تلبث أن حطمت نظرة الغضب ، فى عينى وقلب القشتالى ، فارتخت أصابعه الممسكة بمقبض سيفه ، وتراجع ، مغمغمًا فى حدة:

ـ طاعة الملك (فرناندو) فوق كل اعتبار .

غمغم الألمانى فى برود :

ـ بالضبط .

قالها ، وأدار جواده بعيدًا ، وراح يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن شىء ما ، على نحو جعل الفرسان القشتاليين يتبادلون نظرة حائرة ، قبل أن يسأل أحدهم :

ـ أنحن بانتظار أحد أيها القائد ؟!

صمت (هيلموت) بضع ثوان ، قبل أن يرفع سبابته ، مشيرًا إلى الشرق ، وقائلاً فى صرامة :

ـ هذا .

أدار الجميع عيونهم إلى حيث يشير ، وتوقفت أبصارهم عند سحابة من الغبار ، بدت من بعيد ،

وراحت تقترب وتقترب ، حتى بدا وسطها فارس قوى البنية ، على متن جواد مبرقش ببقع بنية كبيرة ..

وكان من الواضح أن الألمانى ينتظر وصول ذلك الفارس بلهفة واهتمام شديدين ، فعلى الرغم من بروده المعهود ، أطلت من عينيه نظرة متوترة للغاية ، وهو يتابع ذلك الفارس ببصره ، حتى بلغ الركب ..

كان أسود الشعر ، أسمر البشرة ، قوى البنية ، يحمل ملامح أندلسية واضحة ، امتزجت بعينين زرقاوين ، اشتركت مع سمرته ، لتمنحه مظهرًا عجيبًا ..

وبغطرسة عجيبة ، تجاهل ذلك القادم كل الفرسان القشتاليين ، واتجه نحو (هيلموت) مباشرة ، وراح يتحدث إليه بلغة لم يفهم أحدهم حرفًا واحدًا منها ..

وانعقد حاجبا (هيلموت) بشدة ، وهو يستمع إلى ذلك القادم ، وارتفعت يده تحك ذقنه فى توتر ملحوظ ، ثم استدار يلقى نظرة نحو الجنوب ، قبل أن يلقى بضع كلمات قليلة للقادم ، الذى أومأ برأسه إيجابًا ، ثم أدار عنان جواده ، وعاد ينطلق من حيث أتى ..

وبشىء من العصبية ، قال أحد القشتاليين :

ـ ما الذى يحدث بالضبط ؟!

تجاهل (هيلموت) السؤال تمامًا ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ستنفصل هنا .. سيبقى خمسة منكم فى هذه البقعة ، وسيواصل الباقون مسيرتهم معى إلى (قرطبة) .

تبادل الفرسان نظرة متوترة ، قبل أن يهتف أحدهم :

ـ ولماذا يبقى خمسة منا هنا ؟!

أجابه (هيلموت) فى صرامة شديدة :

ـ لأن أوامر الملك (فرناندو) تؤكد حتمية وصول هذا الزنجى إلى (قرطبة) سالمًا ، بأى ثمن .

قال الرجل فى حدة :

ـ وما الذى سيمنع وصوله سالمًا ؟!

أجابه فى صرامة شديدة :

ـ غباؤكم .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة مستنكرة ، لم تلبث أن تحولت إلى غضب هادر ، كادوا معه يمتشقون سيوفهم ، لولا أن هتف الألمانى فى غضب صارم :

- ذلك الفارس الأبيض يطاردنا ، محاولاً استعادة رفيقه .

لم يكد يأتى على ذكر (فارس) ، حتى تحوّل غضب القشتاليين إلى موجة من التوتر ، تبادلوا معها نظرة أخرى ، قبل أن يجذب أحدهم سيفه فى حدة ، هاتفًا:

- سنروى السهول بدمائه إذن .

أشار الألمانى بسبّابته ، قائلاً فى حزم :

- هذا ما عنيته بالضبط .

لم يكد ينهى عبارته ، حتى انطلق فى المكان صهيل جواد قوى ، فاستدارت كل العيون إليه..

وكان المشهد مهيبًا رهيبًا بحق ..

فعلى متن ذلك الجواد ، الذى أطلق صهيله ، كان (فهد) ينثنى على نحو بالغ المرونة ، إلى حد مذهل ، ويحلّ قيود كاحليه ، بأصابع يديه المقيدتين من خلف ظهره ، وقد انثنت ساقاه إلى الخلف بأسلوب بدا وكأنه مستحيل تمامًا ..

وبكل قوته وانفعاله ، صرخ (هيلموت) :

- امنعوه .. امنعوه من الفرار ..

ومع آخر حروف صيحته ، كان (فهد) قد تخلّص من قيود كاحليه بالفعل ، ووثب إلى الأرض ، ومعصماه مازالا مقيدين خلف ظهره ..

وبسرعة مدهشة ، امتشق القشتاليون سيوفهم ..

وانطلقت من حناجرهم صرخة قتالية مخيفة ..

وكرجل واحد ، انطلق القشتاليون العشرة نحو (فهد) ، وسيوفهم تضرب الهواء على نحو رهيب .

وبتكنيك قتالى مدهش ، أحاطوا بالعملاق الأسود ، الذى راح يقاتل فى عنف وقوة ، للتخلّص من قيوده..

وعلى الرغم من الأوامر المشدّدة ، بالإبقاء على حياة (فهد) ، لمح الألمانى فى عيون فرسان قشتالة نظرة دموية مخيفة ..

ولأنه يدرك طبيعتهم جيّدًا ، فقد أدرك أنهم سيتجاهلون حتمًا أوامر الملك ..

وسيطيعون الشىء الوحيد ، الذى تدرّبوا عليه ، منذ وعت عيونهم الدنيا ..

القتل وإراقة الدماء ..

وبكل قوته ، هتف (هيلموت) ، وهو يجذب عنان جواده :

ـ لا .. لا تقتلوه ..

ولكن صيحته ذهبت سدى ، مع تلك الرغبة العارمة فى قلوب القشتاليين ، للانتقام ممن ذهب بأرواح رفاقهم ..

وضاعت صيحته أيضًا مع صرخة (فهد) ، التى زلزلت الأرض ، وترددت فى السهول الواسعة ، حتى كادت تبلغ مسامع (فرناندو) فى (قرطبة) ..

والعجيب أن تلك الصرخة لم تفت فى عضد القشتاليين العشرة ، وسيوفهم ترتفع ، فى وجه العملاق الأسود . الذى لم ينجح فى التخلص من قيوده ..

ثم تهوى ..

بمنتهى العنف ..

والقسوة ..

★ ★ ★

٣ـ الفرسان ..

« مهلاً » ..

هتف (فارس) بالصيحة ، وهو يجذب معرفة جواده بكل قوته ، قبل أن يثب عن متنه ، فى رشاقة مدهشة ، وينحنى ليفحص بقعة من الأرض ، فاتجه إليه (مهاب) ، متسائلا :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار (فارس) إلى الآثار ، قائلاً :

ـ إننا نطارد أحد عشر فارسًا ، وجوادًا منفردًا .

قال (مهاب) فى دهشة :

ـ جواد ماذا ؟!

أجابه (فارس) فى حزم :

ـ انظر حوافر هذا الجواد الأخير .. إنها لم تنغرس فى الأرض إلى نفس العمق ، الذى انغرست به حوافر الجياد الأخرى ، وهذا يعنى أنه لا يحمل فارسًا على متنه .

انعقد حاجبا (مهاب) بضع لحظات ، قبل أن يثب عن جواده ، وينحنى فاحصا الآثار بدوره ، ثم يقول فى توتر :

- إنه جواد (فهد) ...

سأله (فارس) فى دهشة :

- وكيف تعرفته ؟!

أشار (مهاب) بيده ، مجيبا :

- إنه استنتاج محض ، فنحن لم نعثر على جثته ، حيث نشب القتال ، وهذا يعنى أنه لم يلق مصرعه ..

قال (فارس) فى حماس :

- وأنه يتبع سيده .

مط (مهاب) شفتيه ، مغمغمًا :

- ربما .

نهض (فارس) واقفا ، واتجه نحو جواده ، ووثب بعينيه ، قائلا فى حزم :

- لا تفسير آخر.

ثم جذب معرفة جواده ، ولكزه بركبتيه فى بطنه ، هاتفا :

- هيا يا (رفيق) .. لكل دقيقة ثمنها ..

وثب (مهاب) بدوره على متن جواده ..

وانطلق الجوادان ..

والفارسان ...

★ ★ ★

فجأة ، انطلق صهيل قوى ..

واقتحم جواد أسود كالليل دائرة فرسان (قشتالة)..

اقتحمها ، فى نفس اللحظة ، التى كادت فيها السيوف تهوى على عنق (فهد) ..

وبقفزة مدهشة ، ضرب الجواد أحد الفرسان القشتاليين ، فى ظهره ، فدفعه إلى الأمام ، ليرتطم بزميل له ، مال سيفه مع عنف الارتطام ، فأصاب به خوذة زميل ثالث ..

ومع الهرج المباغت ، انحنى (فهد) يتفادى ضربات السيوف ، ثم اندفع إلى الأمام ، وضرب أقرب جواد له فى صدره ، فصهل الجواد ، وارتفعت قائمتاه الأماميتان على نحو غريزى ، مما أفقد فارسه توازنه ، فسقط أرضا فى عنف ..

وفى نفس اللحظة ، كان الجواد الأسود يتفادى ضربة سيف ، ويطلق صهيلا غاضبا ، وهو يضرب فارسا آخر ..

وبكل غضب الدنيا ، هتف (هيلموت) :

ـ تماسكوا .. أكملوا الدائرة .. اقتلوا الجواد ..

ولم ينتبه ، إلا فى اللحظة الأخيرة ، إلى أن عبارته قد انطلقت من بين شفتيه بالألمانية ، وليس بالقشتالية ..

وأن أحدا من الفرسان لم يفهم ..

وربما لم يسمعه ..

فقد كانت صرخات (فهد) تشق المكان ، وصهيل جواده يخترق الآذان ..

وصرخات القشتاليين تتبعثر في كل مكان ..

ثم انطلق صفير ، وسط كل هذا ..

صفير جعل الجواد الأسود يتراجع بغتة ، ويطلق صهيلاً أكثر قوة ، ثم يعدو وسط فرسان قشتالة ، متجهاً نحو سيده ، الذى انطلق يعدو بدوره ، بجسده الأسود القوى ، ومعصماه مقيدان خلف ظهره ..

وانعقد حاجبا (هيلموت) ، أمام ذلك المشهد ، وهتف :

ـ أوقفوه .. أوقفوا الزنجى .

هذه المرة ، انطلقت صيحته بالقشتالية ..

والتقطتها آذان الفرسان ..

وكرجل واحد ، اندفعوا نحو (فهد) ، الذى راح يعدو بسرعة مدهشة ، وجواده يتجه إليه ..

ووثب (فهد) ..

وكانت وثبة لا مثيل لها قط ..

وثبة فارس مقيد ، نحو جواده ، الذى يعدو بأقصى سرعة ..

ولكن أروع ما فى هذه الوثبة ، هو أنها وضعت الفارس الزنجى على متن جواده .. بالضبط ..

ومع إدراكه أن الأمور قد سارت على ما يرام ، أطلق الجواد صهيلاً آخر ، وترك فارسه ينحنى بصدره إلى عنقه ، ويضم فخذيه إليه بقوة ، قبل أن يزيد من سرعته ، ويعدو كرياح عاصفة ، فى قلب شتاء قاس ..

وانطلقت من حلوق فرسان (قشتالة) صرخة غاضبة ..

أما (هيلموت) ، فلم يفلت من بين شفتيه حرف واحد ..

فقط جذب عنان جواده بكل قوته ، وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يجذب سهمًا من كنانته ، ويدس مؤخرته في وتر قوسه ، ثم يصوبه بدقة ..

بمنتهى الدقة ..

وفي نفس اللحظة ، التي وثب فيها جواد (فهد) إلى الأمام ، أطلق (هيلموت) سهمه ..

وانطلق السهم ..

وانطلق معه (هيلموت) بجواده ..

وانطلق أيضًا صهيل قوى ، من الجواد الأسود ..

صهيل ألم حاد ، عندما انغرس سهم الجرماني في فخذه ..

وعلى الرغم منه ، اختل توازن الجواد ..

وسقط ..

ومع سقوطه ، ارتطم جسد (فهد) بالأرض ، وتدحرج في عنف ، قبل أن يسيطر على نفسه ، ويوقف جسده ، ثم يهب واقفًا على قدميه ، ومعصماه مازالا مقيدين خلف ظهره ، و .....

« خسرت أيها الزنجي » ..

هتف بها (هيلموت) ، وهراوته تهوى على رأس

(فهد) ، في نفس اللحظة التي نهض فيها هذا الأخير ..

وكانت الضربة عنيفة ..

إلى أقصى حد ..

وسقط (فهد) مرة أخرى ..

سقط فاقد الوعي ..

أما الجواد ، فقد نهض في صعوبة ، وحاول أن يتقدم نحو سيده ، وهو يطلق صهيلاً عصبيًا ..

ولكن (هيلموت) التقط سهمًا آخر من كنانته ، وهو يقول في غضب :

- إنني أبغض قتل الجياد ، ولكنني لن أتردد لحظة في إطلاق سهمي الثاني على عنقك ، لو واصلت عنادك هذا ..

خُيِّل إليه أن الجواد الأسود قد فهم كل كلمة نطق بها ، فقد رفع عينيه إليه لحظة في صمت ، وبدا وكأنما قد نقل بصره من الوجه إلى السهم ، قبل أن يطلق صهيلاً خافتًا ، ويلقى نظرة سريعة على سيده ، ثم يبتعد بأقصى سرعة تسمح بها إصابته ..

وهتف أحد فرسان (قشتالة) ، وهو يعدو نحوه بجواده :



وقبل أن يتمّ القشتالى عبارته ، أطلق (هيلموت) سهمه . .

ـ لا تسمحوا لذلك الجواد الحقير بالفرار .. لا بد

وقبل أن يتمّ القشتالى عبارته ، أطلق (هيلموت) سهمه ..

واتسعت عينا القشتالى ، وانطلقت من حلقه شهقة ألم ذاهلة مذعورة ، عندما اخترق سهم (هيلموت) عنقه ، وألقاه عن جواده جثة هامدة ..

واتسعت عيون الفرسان الباقين فى ذعر مستنكر ، قبل أن تنطلق من حلوقهم صرخة غضب..

واستل (هيلموت) سيفه ، صارخاً فى صرامة غاضبة مخيفة:

ـ لو حاول أحدكم ، مجرد محاولة ، سأقطع عنقه بلا تردد ..

صاح به قشتالى ثائر :

ـ لقد قتلت أحد الرفاق .

صرخ (هيلموت) :

ـ سأكررها ، مع كل من يتجاوز الأوامر ، أو يتخذ من نفسه قائداً لنفسه .. هل تفهمون ؟! أنا القائد هنا .. الملك (فرناندو) منحنى هذه الصفة ، وكل من يرفضها أو يتجاوزها خائن يستحق القتل ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ أليس هذا ما أقسمتم عليه يا فرسان (قشتالة) ؟!

سرى توتر عنيف بين القشتاليين ، وتبادلوا نظرة عصبية متوترة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ كان يطارد جوادًا مصابًا فحسب .

هتف (هيلموت) :

ـ سأقتل من يحك أنفه ، دون أمر مباشر بهذا .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يهتف :

ـ ما رأيكم يا فرسان (قشتالة) ؟! ما قولكم ؟!

تبادل الفرسان نظرة أخرى، قبل أن يقول كبيرهم :

ـ سنطيع كل ما أمر به مولانا (فرناندو) .

ظلّ (هيلموت) معقود الحاجبين ، يدير فيهم عينيه بضع لحظات ، قبل أن يعيد سيفه إلى غمده ، قائلاً فى صرامة :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة ، استمعوا إلىّ جيدًا ، ونفذوا كل ما سآمركم به ، فالفارسان اللذان يطاردانا ، خبيران فى تقصى الأثر .

وعاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف :

ـ وسنحاول استغلال هذا .. إلى أقصى حد .

قالها ، وراح يملى أوامره الجديدة ..

الأوامر ، التى جعلت الكل يوقن أنه يستحق منصب القيادة هذا ..

وعن جدارة ..

* * *

بدأت الشمس رحلة المغيب ، و (فارس) و(مهاب) ينطلقان على متن جواديهما ، متتبعين آثار الفرسان القشتاليين وحملهم ، وعند البقعة التى دار فيها القتال ، أشار (مهاب) بيده ، قائلاً :

ـ هنا .

وثب (فارس) عن متن جواده ، وأسرع يفحص الآثار ، هاتفًا :

ـ رباه ! لقد اشتبك معهم (فهد) هنا .

أضاف (مهاب) فى حزم :

ـ عشرة فرسان ، على متون جيادهم ، و (فهد) يقاتل على قدميه .

قال (فارس) :

ـ جواده تدخل ، وبعضهم سقط ، و ....

قاطعه بغتة صهيل ضعيف ، جعله يلتفت إلى مصدره ، ويهتف :
- ربّاه ! إنه جواد (فهد) .
ارتفع حاجبا (مهاب) ، وهو يعدو نحو الجواد ، هاتفًا فى انزعاج :
- إنه مصاب ..
كان الجواد الأسود يرقد على جانبه ، وسهم (هيلموت) ما زال مغروسًا فى فخذه ، الذى أغرقته الدماء ، فأسرع (مهاب) يفحصه ، وهو يهتف :
- ربّاه ! هذا الجواد بحاجة إلى إسعاف عاجل .
ثم ربّت على فخذ الجواد فى حذر ، قبل أن يجذب السهم فى قوة ، فأطلق الجواد صهيلاً قويًّا ، وانتفض جسده فى عنف ، وإن أعجزته إصابته عن النهوض ؛ فراح عنقه يرتفع وينخفض فى عصبية ، جعلت (مهاب) يربّت عليه ، متمتمًا فى تعاطف مشفق :
- اهدأ أيها الجواد .. اهدأ .. كل شىء سيصبح على ما يُرام بإذن الله (سبحانه وتعالى) ..
سأله (فارس) فى توتر :
- هل يمكنك مداواته ؟!

أومأ (مهاب) برأسه ، مغمغمًا :
- بعناية الله (عزّ وجلّ) .
وقف (فارس) يراقبه بضع لحظات ، قبل أن يتلفت حوله ، متمتمًا :
- كانت محاولة فاشلة من (فهد) ..
غمغم (مهاب) ، وهو يداوى الجواد :
- لقد أفقدوه الوعى .. أليس كذلك ؟!
أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، ثم انحنى يفحص الآثار ، قبل أن يقول فى عصبية غاضبة :
- يا للأوغاد !! لقد قيّدوا معصميه إلى أحد جيادهم ، ليعدو خلفهم مضطرًّا طوال الوقت !
عضّ (مهاب) شفتيه فى مرارة غاضبة ، مغمغمًا :
- إنهم يستنزفون قوته ؛ حتى لا يسعى للفرار مرة أخرى .
كرّر (فارس) ، وهو يقبض على مقبض سيفه فى قوة:
- يا للأوغاد !!
ثم أدار عينيه إلى الأفق ، يراقب رحلة الشمس إلى الغروب ، وهو يقول فى حزم :

ـ من الواضح أنهم ينطلقون منذ أوّل النهار ، دون التوقُّف إلا للضرورة القصوى ، وجيادهم لن تحتمل هذا حتمًا ، مما سيضطرهم إلى التوقُّف ، مع هبوط الليل .

واصل (مهاب) عمله مع الجواد ، وهو يقول :

ـ الليل سيمنعنا من تعقّب آثارهم أيضًا .

قال (فارس) فى حزم :

ـ هذا يعنى حتميةَ أن نحدِّد وجهتنا ، قبل أن تختفى الشمس فى الأفق .

قالها ، ووثب فى خفة على متن جواده ، وهو يكمل :

ـ وإلا ...

لم يتمّ عبارته الأخيرة ، وهو ينطلق بالجواد لبعض الوقت ، و ...

وفجأة ، جذب معرفة جواده فى شدّة ، وانعقد حاجباه ، وهو يتطلّع إلى الآثار على الأرض ، متمتمًا :

ـ عجبًا ! الأمر يبدو وكأن ...

لم يحاول إكمال عبارته ، فى هذه المرّة أيضًا ،

وهو يثب عن متن جواده ، ثم ينحنى ليفحص الآثار بدقة أكثر ..

ثم انعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يقول :

ـ ربّاه ! لقد انقسموا إلى قسمين .. قسم حمل (فهد) إلى الشمال الشرقى ، والقسم الآخر ...

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلقت صيحة (مهاب) ، ممتزجة بصليل السيوف ..

واستدار (فارس) بأقصى سرعته إلى حيث (مهاب) ، ووقع بصره على قائد الفرسان ، وقد انخرط فى قتال عنيف ، مع خمسة يرتدون ثيابًا أندلسية..

ويقاتلون كالقشتاليين ..

ودون كلمة واحدة ، وثب (فارس) على متن (رفيق) ، واستلّ سيفه ، وهو ينطلق نحو المعركة ..

أما (مهاب) ، فعلى الرغم من مفاجأته بظهور القشتاليين الخمسة ، إلا أن طبيعته وخبراته السابقة ، قد ساعدته على هضم المفاجأة بسرعة البرق ، وهو ينتزع سيفه من غمده ، ويستقبل انقضاضتهم كالأسد، وهو يطلق صيحة قتالية قوية ..

ولكن القشتاليين الخمسة كانوا يقاتلون بشراسة لا مثيل لها ..

وعلى الرغم من علمهم بوجود (فارس) ، على قيد أمتار قليلة ، وعلى مرمى أبصارهم ، إلا أنهم تجاهلوا وجوده تمامًا ، وانقضوا كلهم على (مهاب)..

كان من الواضح أنهم قد انتظروا هذه اللحظة بالذات ..

لحظة انفصال الفارسين ..

وأنهم يهدفون إلى الانفراد بفارس واحد ، و ....

وقتله ..

بلا رحمة ..

★ ★ ★

وقف الملك (فرناندو) صامتًا ساكنًا ، فى شرفة قصره الكبير فى (قرطبة) ، يراقب غروب الشمس ، وهو يحمل كأسه ، التى امتلأت حتى منتصفها ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ، توحى بغرقه فى بحر تفكير عميق ..

ومن خلفه ، ارتفع صوت ارتطام كعبين ثقيلين بعضهما بالبعض ، مع صوت جهورى ، يقول :

- مولاتى الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة) و (ليون) .

مط (فرناندو) شفتيه ، فى شىء من الاستهجان ، وهو يستدير إلى حيث دلفت الملكة ، بجمالها الساحر الشهير ، واعتدادها الأكثر شهرة ، ثم عاد يشيح بوجهه ، مغمغمًا :

- مرحبًا بجميلة الجميلات .

انعقد حاجباها ، مع رنة السخرية فى عبارته ، وقالت فى شىء من الصرامة :

- ما الذى يحدث بالضبط يا (فرناندو) ؟!

مط شفتيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- وما الذى تتصورين أنه يحدث يا (إيزابيلا) ؟!

تسللت رنة ساخرة إلى لهجتها الصارمة ، وهى تقول :

- أخبرنى أنت ، فأنا لم أرك قط بهذه الهيئة ، إلا عندما تنتظر أخبارًا مهمة من (غرناطة) .

قال فى سخرية :

- يا للبراعة !

ثم ألقى محتويات كأسه كلها فى حلقه دفعة واحدة ، قبل أن يلتفت إليها بوجه محتقن ، قائلاً :

- صدقت يا مليكتى .. أنا أنتظر بالفعل أخبارًا مهمة من (غرناطة) .

ومال نحوها ، ليضيف :

- أخبارًا قد تفتح لنا الطريق إليها على مصراعيه .

لم يبد عليها التأثر بعبارته الأخيرة ، وهى تسأله :

- وأية أخبار تلك ؟!

تألقت عيناه ، وهو يجيب :

- خبر وقوع الفهد فى أسرنا .

بدت عليها الحيرة ، وهى تسأله :

- أى فهد ؟!

تراجع بحركة حادة ، وأطلق ضحكة عالية مجلجلة، استفزت مشاعرها كلها ، فهتفت فى حدة :

- أى فهد يا (فرناندو) ؟!

تجاهل سؤالها تمامًا ، وهو يشير إلى خادمه الأبكم ، الذى اندفع يملأ كأسه ، ثم تراجع فى سرعة ، و (فرناندو) يقول :

- هل تعلمين يا عزيزتى أن حربنا مع (غرناطة) ليست حربًا عسكرية بالدرجة الأولى ؟! إنها حرب مبادئ وأفكار .. مبادئنا وأفكارنا تحارب مبادئهم ،

وأفكارهم .. ورموزهم أيضًا .. ولقد ربحنا منهم (قرطبة) ، عندما أفسدنا أفكارهم ومبادئهم لعدة سنوات ، ونشرنا بينهم الرشوة والفساد وحب استغلال النفوذ .. تمامًا كما يقول دينهم .. لقد دفعنا مترفيهم إلى الفسق والفساد .

قالها ، وقهقه ضاحكًا مرة أخرى ، فهتفت فى عصبية :

- لست أرى فى هذا ما يضحك .

لوّح بسبّابته فى وجهها ، هاتفًا :

- بالضبط يا جميلتى .. إنها بليّة .. وشر البلية ما يضحك .. لقد حصلنا على وسيلة تدميرهم من دينهم نفسه ، وهم لا يدركون(*) .. هذا لأن أسهل ما يمكنك فعله هو دعوة المترفين إلى الفسق واستغلال النفوذ .. إنه أمر يبدو لهم ممتعًا ، ودليلاً على

(*) القرآن الكريم .. الآية رقم (١٦) من سورة (الإسراء) .. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا ﴾ [صدق الله العظيم] .

سطوتهم وقوتهم ، فينغمسون فيه ، ويتباهون بـه ، ويسرفون فى ارتكاب الأخطاء والمعاصى ، حتى ينهار المجتمع من أساسه ، ويكونون هم أول الساقطين .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ عجبًا ! لم أعهدك حكيمًا مؤمنًا هكذا ؟!

تهقه ضاحكا مرة أخرى ، وقال :

ـ لا شأن للأمر بالإيمان والحكمة يا جميلتى .. إنها وصفة تصلح لكل الأحوال والأزمان .. صدقينى أنا .

ثم انعقد حاجباه فجأة ، وهو يضيف فى صرامة:

ـ وفى (غرناطة) ما زالت هناك رموز ومبادئ.. ذلك الفارس الأبيض صار رمزًا للطهارة والنقاء والبطولة ، والشيخ المأفون صار رمزًا للحكمة .. حتى قائد الفرسان الكهل ، صار رمزًا للمقاومة والبقاء .. وحتى يمكنك هزيمة مملكة (غرناطة) ، وإلحاقها بما صار لنا من (الأندلس) ، عليك أن تحطمى تلك الرموز أولاً .

بدا لها منطقه سليمًا عبقريًا ، فتمتمت :

ـ أهـذا كل ما تسعى إليه إذن ؟! أن تحطم رموزهم ؟!

هتف ، ملوحًا بكأسه :

ـ هذا هو الهدف الرئيسى ..

ثم عاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف :

ـ ولكن الهدف الأكثر أهمية وعجالة الآن ، هو استعادة ذلك الزنجى ، قبل أن ينقل ما لديه للأندلسيين .

غمغمت فى دهشة :

ـ ما لديه ؟!

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ نعم يا جميلتى .. ما لديه .

وعلى الرغم من دهشتها وحيرتها ، فالملك (فرناندو) لم يزد حرفًا واحدًا .. على الإطلاق ..

* * *

انقضَّ القشتاليون الخمسة على (مهاب) بتكنيك مدروس بدقة مدهشة، إذ هاجمه ثلاثة منهم مباشرة ، فى حين انقضَّ الاثنان الآخران من الجانبين .

وبكل قوته ، قاتل (مهاب) ..

ولكن كيف لفارس واحد ، مهما بلغت قوته ، أن يتصدّى لخمسة سيوف فى آن واحد ؟!
كيف ؟!
لقد تصدّى سيف (مهاب) لثلاثة سيوف ، وتراجع محاولاً تفادى السيف الرابع ..
ولكن الخامس لم يمهله ..
فمع تراجعه ، شعر بنصل السيف الخامس ينغرس فى ظهره..
واندفع (مهاب) إلى الأمام ، لينتزع ذلك النصل من ظهره ..
وهنا ، غاص نصل آخر فى فخذه ..
وارتفعت سيوف القشتاليين الخمسة ، لتنهى القتال بضربة واحدة قاتلة ، مع مرأى الدماء ، التى تدفّقت من جراح (مهاب) ..
ولكن (فارس) أطلق صيحته ..
وانقضّ بكل قوته ..
واستدار ثلاثة من القشتاليين لمواجهته ، فى حين هوى الاثنان الآخران بسيفيهما على (مهاب) ..
وتلقى (مهاب) السيفين على نصل سيفه ، فى

نفس اللحظة التى هوى فيها (فارس) بسيفه ، صارخًا :
ـ أيها الأوغاد .
أصاب سيفه عنق قشتالى ، ثم تركه ليغوص فى صدر ثان ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها (مهاب) على ثالث ، وانقضّ عليه القشتالى الرابع ..
وأطلق (فارس) صيحته ثانية ..
وضرب ..
وضرب ..
وتدفّقت الدماء فى عنف ..
ثم هدأ كل شىء دفعة واحدة ..
وفى حزم ، مسح (فارس) الدماء عن نصل سيفه ، وهو يتلفّت إلى معلمه ، هاتفًا فى توتر وانزعاج :
ـ أأنت بخير ؟!
أشار (مهاب) بيده ، قائلاً :
ـ إننى مصاب فى مواضع شتّى ، ولكننى بخير .. لا توجد إصابات قاتلة والحمد لله .
سأله (فارس) ، وهو يفحص جراحه فى توتر :
ـ ألديك ما يصلح لتضميد جراحك ؟!

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا ، وهو يشير إلى سرج جواده ، فالتقط (فارس) تلك اللفافة الجلدية من سرج الجواد ، وأخرج منها تلك الضمادات ، التى أعدَّها (مهاب) مسبقًا ، وهو يغمغم :

ـ هل كنت مستعدًا لهذا ؟!

ابتسم (مهاب) فى شحوب ، وهو يقول :

ـ كل فارس يتوقَّع إصاباته يا فتى .

تمتم (فارس) ، وهو يضمد جراحه فى سرعة :

ـ من حسن الحظ .

عضَّ (مهاب) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ حسن الحظ ؟! لقد خسرنا الكثير من الوقت يا (فارس) ، وهذا فى صالحهم بالتأكيد .

انعقد حاجبا (فارس) ، وهو يقول :

ـ لقد قتلنا خمسة منهم .

هزَّ (مهاب) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا لا يهم .. من الواضح أنهم يريدون (فهد) وما لديه بأى ثمن ، حتى إنهم يضحون بكل شخص وكل شىء ، فى سبيل هذا .

تراجع (فارس) ، مغمغمًا :

ـ ربَّاه ! هذا يعنى أن ما لدى (فهد) ثمين للغاية .

أمسك (مهاب) يده فى قوة ، قائلاً :

ـ وخطير للغاية أيضًا .

ثم جذبه إليه ، مستطردًا فى حزم :

ـ وهذا يعنى حتميةَ أن تذهب يا فتى.

قال (فارس) فى سرعة:

ـ فليكن .. سأضمد جراحك ، و....

قاطعه (مهاب) فى صرامة :

ـ الآن .

تراجع (فارس) فى حدة ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى صرامة أكثر :

ـ أقول الآن يا (فارس) .. لكل دقيقة ثمنها .. اذهب يا فتى .. اذهب خلفهم ، واتركنى .

صاح (فارس) مستنكرًا :

ـ أتركك ؟! هذا مستحيل !

قبض (مهاب) على ذراعه فى قوة أكبر ، وهو يقول :

ـ المستحيل الوحيد ، والعار كل العار ، أن تضيع (غرناطة) ؛ لأن (مهاب) كان مصابًا ..

ارتفع حاجبا (فارس) فى تأثر ، فتابع (مهاب) فى حزم صارم :

- لقد ضمدت جراح ظهرى ، وأنا ضمدت جرح الجواد ، ويمكننى تضميد ما تبقى من جراحى ، والعودة بجوادى وجواد (فهد) إلى (شنتفى) ، أما أنت ، فعليك أن تكمل المهمة ، وألا تتراجع قط ، مهما كانت الأسباب .

وكادت أصابعه تنغرس فى ذراع (فارس) ، وهو يضيف :

- اذهب يا فتى .. اذهب .. هم يريدون (فهد) ونحن نريده .. ولكل دقيقة ثمنها.

التقت عيونهما بضع لحظات ، تبادلا خلالها ما نعجز عنه الكلمات ..

ثم انسحب (فارس) فجأة ، ووثب على متن جواده ..

وانطلق يسبق الرياح نحو الهدف ..

نحو (قرطبة) .

* * *

٤- قلب الليل ..

لهثت جياد القشتاليين فى شدة ، مع مغيب الشمس ، وخيل لـ (فهد) أن قلبه سينخلع من صدره ، مع شدة خفقاته ، وهو يعدو لساعة كاملة ، مقيدًا إلى أحد الجياد ، وهتف فارس قشتالى فى عصبية :

- الجياد لن يمكنها الاستمرار على هذا النحو .

انعقد حاجبا (هيلموت) ، وهو يمط شفتيه فى توتر بالغ ..

إنه يعلم أن الرجل على حق ..

الجياد لن يمكنها الاستمرار على هذا النحو ..

مهما كانت رغبته هو ..

أو قوة احتماله ..

صحيح أنه صار على مسيرة ليلة واحدة من حدود (قرطبة) ، إلا أن الأمور تحتم التوقف هنا ..

وبإشارة من يده ، توقفت القافلة الصغيرة ، ولم تكد تفعل ، حتى سقط (فهد) على وجهه وهو يلهث

فى عنف ، فألقى (هيلموت) نظرة عليه ، قائلاً فى مقت :

ـ لولا أوامر الملك (فرناندو) ، لتركتك تهلك هنا كالبعير ..

ثم أشار إلى القشتاليين الأربعة ، الذين تبقوا من فريقه ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ فليكن .. سنتوقف هنا .. قيّدوا الزنجى بأغلال حديدية ، إلى تلك الشجرة هناك ، وسنلتف حولها ، حتى مشرق الشمس .

لم يكد الفرسان الأربعة يسمعون أوامره ، حتى هبطوا عن جيادهم ، وتركوها ترعى فى المنطقة ، وهم يقيدون (فهد) المنهك إلى جذع الشجرة الضخم ، ثم بدءوا فى إشعال النيران للتدفئة ، و .....

« لا نيران » ..

نطقها (هيلموت) فى صرامة شديدة ، فالتفتوا إليه فى استنكار ، وهتف أحدهم فى غضب :

ـ الليل بارد ، و....

قاطعه (هيلموت) فى صرامة :

ـ قلت : لا نيران .. النيران يمكن رؤيتها من ألف ألف ذراع .



هبطوا عن جيادهم ، وتركوها ترعى فى المنطقة ، وهم يقيدون (فهد) المنهك إلى جذع الشجرة الضخم ..

قال فارس آخر فى عصبية :
- وماذا فى هذا .. ما من معسكر بلا نيران ؟!
أجابه (هيلموت) فى حدة :
- هذا المعسكر استثناء .
قال قشتالى ثالث :
- النيران ليست ..
قاطعه (هيلموت) ، بلهجة قاسية صارمة :
- قلت : لا نيران .. هذا أمر .
قالها ، واستدار يتطلع إلى الأفق ، فى قلق واضح،
فقال قشتالى رابع فى حدة :
- ما الذى تخشاه بالضبط أيها الجرمانى ؟! لقد تركنا خلفنا خمسة من أفضل فرساننا ، لمواجهة اثنين من الأندلسيين فحسب ، والمفترض أنهم قد مزقوهما إربًا الآن .
أشار (هيلموت) بيده ، قائلاً فى صرامة :
- من المفترض .. وليس من المحتم.
تبادل القشتاليون الأربعة نظرات حائرة ، قبل أن يسأل أحدهم :
- هل تعتقد أن ....

قاطعه الألمانى فى حزم :
- لا بد أن نفترض هذا .
تبادل الفرسان نظرة أخرى، قبل أن يبتسم أحدهم ، قائلاً :
- وحتى لو افترضنا أن الأندلسيين قد نجيا من فرساننا الخمسة ، وهو احتمال ضنيل وغير منطقى ، وأنهم سينقضون علينا فى قلب الليل ؛ لاستعادة هذا الزنجى القبيح ، فكيف يمكننا أن نواجههم بعضلات خدرها البرد ، وأنفاس أرهقتها رطوبة الليل .
وقال آخر فى حزم :
- إننا نحتاج إلى إشعال النيران حتمًا أيها الـ .... القائد .
انعقد حاجبا (هيلموت) فى توتر بالغ الشدة هذه المرة ..
لقد كان الرجال على حق تمامًا فيما يقولون ..
النيران ضرورة فى ليل (الأندلس) ..
لا يمكن للرجال أن يقاتلوا ، ضد أى هجوم محتمل، لو أنهم قضوا ليلة باردة ..
وفى الوقت نفسه ، فالنيران تكفى لتحديد موقعهم..

وبمنتهى الدقة ..
ثم إنه أصدر أمرًا بعدم إشعال النيران ..
والتراجع فى الأمر سيفسد صورته وهيبته كقائد ..
لا بد إذن من وجود حل آخر ..
حل يشعل النيران ..
ويحفظ له هيبته ، فى الوقت ذاته ..
وفى حزم ، قال (هيلموت) :
- فليكن .. يمكننا أن نستغل النيران خير استغلال.
سأله الرجال فى لهفة :
- وكيف ؟!
أشار إلى الشجرة ، التى قيدوا إليها (فهد) ، وهو يجيب :
- سنشعل النار هناك ، بحيث يبدو ذلك الرجل واضحًا على وهجها ، ثم سينام اثنان منكم إلى جوار النار ، ونضع ما يوحى بنوم ثلاثة آخرين إلى جواره ، فى حين سيختفى اثنان آخران خلف جذع الشجرة الضخم ، وعندما سيتوسط القمر السماء ، تتبادلون المواقع ، وهكذا ينعم كل منكم بالدفء والنوم لنصف ليلة .

تبادلوا نظرة صامتة ، ثم سأله أحدهم :
- وماذا عنك أيها القائد ؟!
انعقد حاجباه ، وهو يجيب فى حزم :
- لا تشغل نفسك بأمرى .. نفذوا ما قلته فحسب .
وجذب عنان جواده ، لينطلق به مبتعدًا ، ويختفى وسط الليل ، الذى خيم على المنطقة كلها ، فغمغم أحدهم :
- أين ذهب ؟! وماذا سيفعل ؟!
هز آخر كتفيه ، قائلاً :
- من يدرى ؟!
ثم اتجه ليشعل النيران ، مستطردًا :
- ولكننى أثق به ، على أية حال .
لحق به رجل آخر ، قائلاً :
- أنت على حق .. إنه قائد قوى بالفعل.
فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (هيلموت) يوقف جواده ، إلى جوار شجرة كبيرة أخرى ، ثم يثب متعلقًا بها ، بذلك الجلد الذى يميز بنى جلده ، وتسلقها حتى قمتها ، وهناك حشر جسده بين غصنين قويين ، والتقط سهمًا من كنانته ، وهو يغمغم :

ـ حسن .. إذا ما وصلت إلى هنا ، فستجدنى فى انتظارك ، أيها الأندلسى الأبيض .

نطقها ، ثم لاذ بالصمت ، ودسّ سهمه فى وتر قوسه ، وجلس ينتظر ..

وينتظر ..

وينتظر ..

ينتظر الفارس ..

فارس (الأندلس) ..

* * *

تأمّل الشيخ فى وقار ، أولئك الفرسان الثلاثة ، الذين تركهم (ابن الأحمر) لحراسته ورعايته ، قبل أن يسألهم فى رصانة :

ـ هل تشعرون أن إقامتكم هنا مريحة أيها الفرسان ؟!

شدّ أكبرهم قامته أمام الشيخ فى احترام ، وهو يقول :

ـ المفترض أن يجعل وجودنا إقامتك أنت مريحة يا سيّدى .

ابتسم الشيخ ، قائلاً :

ـ إنها دارى يا ولدى .

ارتفع حاجبا فارس آخر ، وهو يغمغم :

ـ دارك ؟!

ثم تلفت حوله ، متمتمًا :

ـ تقصد أنه مخيمك يا سيّدى .

أومأ الشيخ برأسه موافقًا ، وهو يقول بنفس الرصانة :

ـ لا فارق يا ولدى .. لا فارق .

كانت الشمس قد اختفت فى الأفق ، فأسرع الفرسان يوقدون النار ، ويعدون طعام العشاء ، وسأل أحدهم الشيخ فى اهتمام :

ـ هل تفضّل اللحم المشوى يا سيّدى ؟!

أشار الشيخ بيده نفيًا ، وقال :

ـ إننى اكتفى بقليل من اللبن المتخثّر يا ولدى[*] .

ثم لوّح بيده ، وهو يتجه إلى ما خلف خيمته ، مستطردًا :

(*) الزبادى .

- انعموا بوقتكم .
نهض أحدهم فى حزم ليتبعه ، ولكنه أشار بيده فى حزم ، قائلاً :
- اتركنى لوحدتى يا ولدى .
تردد الفارس بضع لحظات ، ولكن زميله جذبه ، قائلاً :
- اتركه لنفسه .. إنه لن يبتعد .
واصل الفارس تردده لحظة أخرى ، ثم لم يلبث أن ترك أعصابه تسترخى ، وانضمّ إلى رفيقيه فى مسامرتهما ..
أما الشيخ ، فقد جلس على حجر كبير خلف خيمته ، وترك لأفكاره العنان ..
فالمفترض ، طبقًا لكل المعطيات ، أن يكون (فارس) و(مهاب) قد بلغا (شنتفى) فى الصباح الباكر ..
ولكنه لم يتلقَ منهما أية رسائل ..
فى المعتاد ، يقوم (مهاب) بإرسال واحدة من الحمام الزاجل برسالة قصيرة ..
إلا أنه لم يفعل هذه المرة ..
فماذا حدث ؟!

ماذا أصابهم جميعًا ؟!
(فهد) لم يعد ..
و (فارس) و(مهاب) لم يرسلا شيئًا ..
وهذا يعنى أن ما يشعر به منذ البداية كان صحيحًا .
وما بلغه من أخبار كان حقيقيًا ..
القشتاليون أدركوا مدى خطورتهم ..
ومدى ما يمثلونه فى أعماق كل أندلسى ..
وسيسعون حتمًا للقضاء عليهم ..
تمامًا كما فعلوا مع أمير (قرطبة) ..
والد (فارس) ..
قتلوه ، وحطموا الرمز الكامن فيه ، فانفتحت لهم الأبواب..
أبواب (قرطبة) ..
إنها وسيلتهم ..
أن ينشروا الفساد ، والعصبية ، والتطرّف ..
ويقضوا على الرموز ..
ثم يحصدوا النصر ..
نصر نمنحهم نحن إياه ، دون أن ندرى ..

نمنحهم إياه بفسادنا ..
واستهتارنا ..
وضياع الحق بين أيدينا ..
و .....

توقفت أفكاره بغتة ، وتجمدت فى دماغه ، مع تلك الحركة الخافتة ، التى نقلها حفيف أوراق الغابة القريبة ، إلى أذنيه مباشرة..

وقفز الشيخ من مكانه ..

وفى اللحظة نفسها ، انقض عليه الفرسان القشتاليون الثمانية ،، من بين الأشجار ، وسيوفهم مشهورة فى أيديهم..

وقبل حتى أن ترتفع السيوف فى وجهه ، أدرك الشيخ خطة (قشتالة) ..

لقد قرروا القضاء على الرموز ..
كل الرموز ..
بلا استثناء ..

* * *

واصل (رفيق) عدوه ، وسط مروج (الأندلس) الخضراء ، فى قلب الليل ، على الرغم من العرق

الغزير ، الذى غمر عنقه وجسده ، وهو يطيع سيده ، الذى بدا أكثر إرهاقًا وشحوبًا ، وهو يجذب معرفته ، هاتفًا بصوت لاهث :

ـ هيا يا (رفيق) .. هيا .. أعلم أننى أطالبك بما يفوق قدراتك ، ولكن مصير (فهد) بين أيدينا يا (رفيق) .. بل مصير (غرناطة) كلها ..

أطلق الجواد صهيلاً ضعيفًا ، وكأنما يعلن لسيده أنه قد بذل بالفعل ما يفوق طاقته بأضعاف وأضعاف..

وفهم (فارس) الصهيل ..
وعض شفتيه فى مرارة ..
هو أيضًا يشعر بتعب لا مثيل له ..
ولكنه يقاوم ..
ويقاوم ..

من أدراه أن القشتاليين لن يواصلوا انطلاقهم طوال الليل ..

إنهم لو فعلوا ، فسيبلغون حدودهم ، مع مطلع الفجر ..

ولا ينبغى أن يسمح بهذا أبدًا ..
مهما كان الثمن ..

كان مجهدًا ومرهقًا بشدة ..
ومستعدًا لمواصلة الجهد والإرهاق لما لا نهاية ..
لولا أنه لمح تلك النيران من بعيد ..
لحظتها فقط ، جذب معرفة جواده فى قوة ، هاتفًا :
- مهلاً .
توقّف الجواد بغتة ، فاختلّ توازنه ، وسقط مع شدة إرهاقه ، فوثب (فارس) عن متنه ، وتدحرج فوق الأعشاب لحظة ، قبل أن يهتف بصوت خافت :
- لا تطلق صهيلك يا (رفيق) .. لا تفعلها .
كان (رفيق) قد استعدّ لإطلاق صهيله بالفعل ، إلا أنه كتمه بغتة ، وهو ينهض واقفًا ، وكأنما فهم كل حرف نطق به سيّده ، الذى تحرّك فى سرعة وخفة ، حتى بلغ مرتفعًا ، رقد فوقه يراقب النيران المشتعلة من بعيد ، قبل أن يغمغم فى ارتياع شديد ، على الرغم من تعبه وآلامه :
- إنهم هم .
أطلق جواده الهواء من منخريه فى توتر ، وهو يضرب الأرض بحوافره فى ضعف ، فالتفت إليه (فارس) ، قائلاً :

- اطمئن يا صديقى .. لن نهاجمهم الآن ؛ فالليل فى أوّله ، وسيكون حارسهم يقظًا .. سنتركهم حتى يتجاوز القمر منتصف السماء .. إنها تكون عندئذ أشد لحظات النوم .
ثم نهض ، واتجه إلى الجواد ، وربّت على عنقه مغمغمًا :
- وهذا يعنى أن أمامنا ساعة على الأقل ، ننعم فيها بالنوم .
قالها ، وقاد جواده إلى أكمة قريبة ، وربّت على عنقه مرة أخرى ، قائلاً :
- معذرةً يا صديقى .. إنها ضرورات القتال .
وفى هدوء ، وكأنما لا يشغلهما أى أمر فى الدنيا ، غرق الفارس وجواده فى نوم عميق ..
عميق للغاية ..
لا أحد منهما يدرى كم مضى عليهما من وقت ، فى هذا السبات العميق ..
ولكن فجأة ، انتفض جسد (فارس) ..
وهبّ جالسًا ..
ومع انتفاضته المباغتة ، هزّ (رفيق) رأسه ، وكاد يطلق صهيلاً خافتًا ..

إلا أنه كتمه فى اللحظة الأخيرة ..

وبخفة مدهشة ، وثب إليه (فارس) ، وربت على عنقه ، هامسًا فى أذنه بحنان عجيب ، وكأنما يتحدث إلى أخ من بنى البشر :

- أحسنت يا (رفيق) .. أحسنت .

كان قد درب جواده هذا ، وأحسن تدريبه ، منذ حداثته ، وصنع منه ، بمساعدة (مهاب) ، جواد حرب لا يشق له غبار ..

لذا ، فقد أدرك الجواد ، بغريزته وتدريبه أن الأمر متأزم ..

وأن الليل وسكونه سينقلان صهيله لمسافات طويلة ..

لذا ، فقد كتم صهيله ..

وضرب الأرض بحوافره فى خفوت ، وكأنما يعلن أنه قد استعاد نشاطه وحيويته ، وعلى أتم استعداد للقتال ..

وابتسم (فارس) ، وهو يربت على عنق جواده ثانية ، مغمغمًا :

- أعلم يا صديقى .. أعلم .. أنا أيضًا استعدت

نشاطى وحيويتى .. يبدو أن الساعات التى استغرقناها فى النوم كانت مباركة بحق .

قالها ، ورفع عينيه إلى القمر ، الذى توسط السماء ، قبل أن يقول :

- انتظرنى أنت هنا يا صديقى .. لا أريد أن يوقظهم وقع حوافرك فى الليل .. أرهف سمعك وانتظرنى ، والحق بى عند أول صفير .. هل تفهم يا (رفيق) ؟! هل تفهمنى ؟!

ضرب الجواد الأرض بحوافره مرة أخرى فى خفوت ، وراح يهز رأسه ، وينفخ الهواء من منخريه ، وكأنما يعترض على عدم اشتراكه فى القتال ، فى حين انسحب (فارس) فى خفة ، وانطلق على أطراف أصابعه ، نحو تلك النيران ، التى يتراقص وهجها على جسد (فهد) القوى ، المقيد إلى جذع الشجرة الضخم ..

وعلى مسافة عشرة أمتار ، توقف يلقى نظرة أكثر قربًا ..

للوهلة الأولى، بدا له وكأن القشتاليين الأربعة ، الذين توقفت جيادهم قريبًا ، قد استغرقوا فى نوم عميق ..

ولكن هذا لم يخدعه ..

فمنطقيًا ، من المستحيل أن يلوذ الأربعة بالنوم ، دون أن يتركوا أحدهم لتولى أمر حراسة الباقين ..

وهذا يعنى أنه هناك خدعة ما فى الأمر ..

لذا ، فقد أرهف سمعه ، وشخص ببصره إلى أحدّ ما يمكنه ..

هناك أربعة أجساد نائمة بالفعل ..

اثنان منهم فقط ، يرتفع صدراهما وينخفضان ، مع تردُّد أنفاسهما فى صدريهما ..

أما الآخران ، فهما جامدان تمامًا ..

لا أطراف تتحرك ..

أو أنفاسًا تتردَّد فى الصدور ..

هو كمين إذن ..

خدعة لاجتذابه ..

وقتله ..

ولكن هناك جياد أربعة بالفعل ..

وهذا يعنى أن فارسين آخرين يختفيان ، فى مكان ما ..

ومرة أخرى ، راح يفحص المكان كله ببصره ..

كان سهلاً ممتدًا ، حسبما يرى على ضوء القمر ..

ووهج النار ..

لا توجد سوى ثلاثة أشجار كبيرة ، فى مدى الرؤية ..

واحدة هى التى قيَّدوا إليها (فهد) ..

وثانية على مسافة عشرة أمتار منها ..

وثالثة على مرمى البصر ..

لا يوجد مكان اختباء منطقى إذن ، إلا خلف تلك الشجرة الأولى ..

وبمنتهى السرعة والخفة والحذر ، أخذ يدور حول المكان ، ليبلغ تلك الشجرة ..

من الخلف ..

كانت دورة طويلة ، حتى لا تلفت الانتباه ..

وسريعة ، حتى لا تفسد الأمر ..

وفى النهاية ، صار هناك ..

على مسافة خمسة أمتار من الشجرة ..

وهناك ، بدا له الأمر فى وضوح .. كان هناك قشتاليان ، يختفيان لمراقبة المكان وحراسته ..

وبخفة مدهشة ، درَّبه عليها (مهاب) طويلاً ، وشرح له الشيخ مزاياها كثيرًا ، اتجه نحوهما ..

وكانت نظرية الشيخ صحيحة ..

النوم يبلغ ذروة سطوته ، كلما اقترب الفجر ..

فعلى الرغم من أن القشتاليين قد قضيا نصف الليل نائمين ، إلا أنهما كانا يجلسان فى تهالك واضح ، وأحدهما يقاوم سقوط رأسه بكل قوته ، وهو يغمغم لزميله :

- تبًا لذلك الجرمانى !! لقد أرهقنا ، حتى إننى أقاوم النوم بشدة .

تمتم الآخر فى سخط :

- إنه لا يعرف الراحة أو الرحمة .. لست أدرى لماذا منحه مولانا (فرناندو) شرف قيادة هذه الحملة؟!

مطَّ الأوَّل شفتيه ، مغمغمًا :

- الملك (فرناندو) له أسبابه حتمًا .

هزَّ الآخر كتفيه ، قائلاً فى خفوت :

- الرجل يبدو خبيرًا محنكًا ، وفارسًا لا يشق له غبار ، ولكن ..

التفت إليه الأوَّل ، متسائلاً :

- ولكن ماذا ؟!

تردَّد الآخر لحظة ، قبل أن يندفع ، قائلاً فى حنق :

- لا يروق لى أبدا أن يقودنا جرمانى ! هذا يبدو وكأنه لا يوجد بيننا من يصلح للقيادة ..

قال الأوَّل فى حزم :

- ليست هذه هى الفكرة .. مولانا (فرناندو) كان يبحث عن دم جديد .. روح جديدة فى القيادة ، لم يألفها الأندلسيون بعد .

قال الآخر فى انبهار :

- أتعنى أن مليكنا أراد مباغتتهم بأسلوب قتال لم يألفوه ؟!

ابتسم الأوَّل ، قائلاً :

- بالضبط .

« هذا لن يصنع فارقًا كبيرًا » ..

انطلقت العبارة بالقشتالية ، على مسافة مترين فحسب منهما ، فانتفض جسداهما ، وهب كلاهما من مجلسه ، واستلَّ الأوَّل سيفه ..

أو كاد ..

فما إن التفت أصابعه على مقبض السيف ، حتى قفزت قدم (فارس) تركل أنفه كالقنبلة ، قبل أن يستدير هذا الأخير ، وينقضَّ على القشتالى الثانى كالصاعقة ..

لم يكن أسلوب القتال اليدوى هذا مألوفًا ، فى تلك الجيوش ..

أو ذلك الزمن ..

ولكن (مهاب) كان يؤمن بضرورته وحتميته ، بعدما تعلمه ، على يد فارس شرقى أصفر الوجه ، فى شرخ شبابه ..

ولقد لقنه إياه كما تعلمه ..

بمنتهى الصبر ..

والبراعة ..

ومن المؤكد أن هذا كان الوقت المناسب تمامًا لاستخدامه ..

فقد كان (فارس) يرغب فى إنهاء القتال فى سرعة ..

وبأقل ضجة ممكنة ..

ودون أن تلتقى السيوف ..

أو يصدر عنها أدنى صليل ..

لذا ، فقد لكم القشتالى الثانى فى أنفه وفكه ، لكمتين متتاليتين سريعتين ، تفجرتا فى وجه الرجل ككيسين من البارود الصامت ، قبل أن يرفع قدمه ،

ليضرب الأوّل فى معدته ، ضربةً جعلته ينثنى على نفسه ، وهو يطلق شهقةً مكتومةً ، أخرستها قبضةَ (فارس) بلكمةٍ حاسمة ..

ولم يستغرق ذلك القتال كله سوى برهة واحدة ..

وبعض الشهقات والضربات المكتومة ..

ثم سقط القشتاليان ..

وساد صمت رهيب ..

صمت تجمّد (فارس) خلاله تمامًا ، وكأنما تحوّل فى لحظة واحدة ، إلى تمثال من الجص ، وهو يرهف سمعه ويشحذ بصره ؛ للتيقن من أن أحدًا من القشتاليين النائمين لم يشعر بما حدث ..

وكان من الواضح أنهما غارقان فى نوم بلا قرار ؛ فقد كانت أنفاسهما هادئة منتظمةً ، على نحو يندر أن يتمتع به طفل رضيع ..

وفى سرعة وخفة ، جرّد (فارس) القشتاليين اللذين هزمهما من أسلحتهما ، ثم قيّدهما فى إحكام ، قبل أن يدور حول جذع الشجرة فى حذر ، هامسًا :

- (فهد) .. هل تسمعنى ؟!

كان الزنجى العملاق قد التقط أصوات القتال ،

فانتفض فى مكانه ، وشحذ كل حواسه ؛ لمعرفة ما يحدث خلفه ، لذا فلم يكد يسمع صوت (فارس) ، حتى همس :

ـ سيدى .

هتف (فارس) بصوت خافت ، وهو يزحف نحوه فى سعادة :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا صديقى .. لقد عاملك هؤلاء الأوغاد بأسوأ ما يكون ، ولكنهم لن يظفروا بك .

ثم استل خنجره ، مستطردًا :

ـ والآن تماسك يا صديقى ، فحل هذه الأغلال المعدنية ليس بالأمر السهل .

قال (فهد) فى خفوت حازم :

ـ لا تفعل .

بدت الدهشة على وجه (فارس) ، وهو يتراجع ، قائلاً :

ـ لا أفعل ؟! ماذا تعنى ؟!

كان يعلم أن (فهد) قليل الكلام إلى حد الصمت ، وأنه إذا ما تحدث ، فهو ينطق أقل الكلمات الممكنة ، للتعبير عما يريد ..

ولكن فى هذه المرة ، كان (فهد) مقتضبًا بشدة ، وهو يرفع عينيه إلى ما خلف (فارس) ، قائلاً :

ـ الخامس .

ومع آخر حروف كلماته ، كان (هيلموت) يجذب وتر قوسه إلى أقصاه ، وهو يغمغم :

ـ سقطت أيها الفارس الأبيض ..

ثم أفلت الوتر ..

وانطلق السهم ..

نحو (فارس) ، مباشرة .

* * *



ومع آخر حروف كلماته ، كان (هيلموت) يجذب وتر قوسه إلى أقصاه ..

٥- لمحة أندلسية ..

انقضَّ القشتاليون الثمانية كالوحوش المفترسة ، وارتفعت سيوفهم الضخمة القوية فى شراسة ، لتهوى على رأس الشيخ الأعزل ، و....

وفجأة ، انطلقت صيحة فرسان (غرناطة) الثلاثة ..

وانقضوا كالعاصفة ..

لا أحد يدرى كيف شعروا ..

وسمعوا ..

وأدركوا ..

ولكن المهم أنهم جاءوا ..

فى الوقت المناسب ..

تماماً ..

واندفعت سيوف ثلاثتهم تذود عن الشيخ ..

بمنتهى القوة ..

وفى تناسق مدهش ، وثب فارسان منهم ، يتلقيان سيوف القشتاليين على سيفيهما ، فى نفس اللحظة

التى جذب فيها الفارس الثالث الشيخ بعيدًا ، وهو يهتف به :

ـ احم نفسك يا سيدى .. ابتعد عن هنا .

ثم وثب ينضمّ إلى زميليه ..

لم يكن القتال متكافئا فى الواقع ، بين ثمانية من القشتاليين ، وثلاثة من الأندلسيين ، خاصة وقد أرسل كل طرف أفضل من لديه ..

وما لديه ..

وردّدت الغابة صليل السيوف ، والأندلسيون الثلاثة يقاتلون كالأسود ، فى حين يلتفّ القشتاليون الثمانية حولهم ، لمحاصرتهم ، والنيل منهم .

ومن موقعه ، رأى الشيخ القشتاليين يضربون ذراع أحد الأندلسيين ، فى حين يسقط أندلسى آخر أحدهم مضرجًا فى دمائه ، ورأى السبعة المتبقين وقد أحاطوا بالأندلسيين تمامًا ، وانقضوا عليهم من كل صوب ، وفرسان (غرناطة) يدافعون عن أنفسهم بقتال عنيف يائس ، فهتف :

ـ ربّاه ! ساعدهم .. ساعد هؤلاء الشجعان .

قالها ، واختطف قطعة من الحطب المشتعل ، واندفع نحو دائرة القتال ، وهو يصرخ :

ـ أيها الجبناء .

استدار أحد القشتاليين يواجهه بسيفه ، هاتفًا فى سخرية :

ـ بقطعة حطب ؟! لقد جننت حقًا أيها الشيخ .

ألقى الشيخ قطعة الحطب المشتعلة ، صائحًا مرة أخرى :

ـ أيها الجبناء .

ولكن القشتالى أطاح بها بسيفه بعيدًا ، واندفع نحوه ، صارخًا :

ـ مت أيها الشيخ المأفون .. مت ..

وبلغ تأزُّم الموقف ذروته ..

الشيخ يواجه سيفًا قويًا ، قاتلاً ..

وفرسان (الأندلس) الثلاثة ، وبينهم فارس مصاب، يواجهون ستةً من القشتاليين الشرسين ، الذين تم انتقاؤهم بمنتهى الدقة ..

و ....

« اهجموا أيها الفرسان » ..

انطلقت الصيحة بصوت جهورى ، حاملة صوتًا

مألوفا ، وبرزت معها كوكبة من فرسان القصر ، على رأسهم (ابن الأحمر) نفسه ، وهو يستطرد :

ـ قاتلوا من أجل (غرناطة) .

تراجع القشتاليون فى ذعر ، وهتف الشيخ فى لهفة :

ـ مولاى (ابن الأحمر) .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

وبسرعة البرق ، انقضّ فرسان (غرناطة) على القشتاليين ، وأحاطوا بهم ، على نحو قلب كفة المعركة فى لحظة واحدة ، وأجبر فرسانُ (قرطبة) على إلقاء سيوفهم ، والأمير يقول فى حزم :

ـ كانت شكوكى إذن على حق .. لقد جاءوا من أجلك .

ردّد الشيخ فى دهشة :

ـ شكوك يا مولاى ؟!

هبط الأمير (ابن الأحمر) عن متن جواده ، وأشار إلى فرسانه بالقبض على القشتاليين ، وهو يقول للشيخ :

ـ نعم .. شكوكى أيها الوزير .. لقد رصد جواسيسى عبور هؤلاء القشتاليين لحدودنا ، وتبعوهم

لمسافة طويلة فى أرضنا ، قبل أن يفقدوا أثرهم .. وعندما علمت بالأمر ، وبما حدث فى (شنتفى) ، أدركت أن القشتاليين يستهدفونكم .

قال الشيخ فى حيرة حذرة :

ـ معذرة يا مولاى (ابن الأحمر) ، ولكن ما لديك من معلومات لا يكفى للتوصل إلى استنتاج كهذا .

ابتسم الأمير فى خبث ، وهو يقول :

ـ تقصد أن ما أخبرتك به لا يكفى أيها الوزير .

قال الشيخ ، فى حذر أكثر :

ـ هناك إذن ما لم تخبرنى به يا مولاى .

لوّح الأمير بكفه ، قائلاً فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إلى رجاله ، قائلاً فى صرامة :

ـ قيدوا هؤلاء القشتاليين ، واحملوهم إلى القصر لاستجوابهم ، وليبق ثلاثة منكم لحراستنا .. هيّا.

تابع الشيخ ببصره ما يحدث ، قبل أن يسأل الأمير:

ـ ماذا يحدث بالضبط يا مولاى ؟!

رمقه الأمير بنظرة صارمة صامتة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ الكثير أيها الشيخ .. الكثير جدًا .

قال الشيخ فى توتر :

ـ المفترض أن يحمل (فهد) أخبارًا مهمة من (قرطبة) .

قال الأمير فى حزم :

ـ من المؤكد أنها مهمة للغاية ، وإلا ما سعوا خلفه هكذا .

ردَّد الشيخ :

ـ ربَّاه ! هل سعوا خلفه ؟!

هزّ الأمير رأسه ، مجيبًا :

ـ الأخبار التى بلغتنى من (شنتفى) ليست سارة على الإطلاق أيها الشيخ ، ولكننى مصرّ على ألا ينتصر القشتاليون هذه المرة أبدًا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يكرِّر:

ـ أبدًا .

جاء دور الشيخ ، ليتطلَّع إليه طويلاً فى صمت حائر متوتّر ، قبل أن يقول :

ـ مولاى.. إننى لم أرك قط بهذا الانفعال ..حتى عندما كان القشتاليون عند حدودنا ! ماذا هناك بالضبط ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الأمير ، وهو يتطلَّع إليه فى صمت متوتر ، ثم لم يلبث أن أشار بيده ، قائلاً :

ـ عندما يعود فارسك ، أبلغه أن يأتى مع قائد الفرسان إلى قصرى على الفور .. أخبره أن الأمر مهم وعاجل .. وخطير للغاية !

ردَّد الشيخ مبهوتًا :

ـ خطير للغاية يا مولاى ؟

أومأ الأمير برأسه إيجابًا ، وهو يمتطى صهوة جواده ، قائلاً :

ـ خطير جدًّا أيها الوزير .

قالها ، وجذب عنان جواده ، ولكزه بركبتيه ، وانطلق عائدًا إلى قصره ، يتبعه فارس واحد من فرسانه ، فى حين بقى الفارسان الآخران إلى جوار الشيخ ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يتساءل : أى أمر هذا الذى يصفه الأمير بأنه عاجل وخطير للغاية ؟!

أى أمر ؟!

* * *

من المؤكد أن الألمانى (هيلموت) فارس لا يشق له غبار ..

صحيح أن شعبه لم تكن له الباع الطولى ، فى عالم الفروسية ، ولكنه استطاع أن ينهل منها حتى ارتوى ..

وعندما صوب (هيلموت) سهمه ، من مسافة كهذه ، كان يستهدف موضع القلب عند (فارس) ..

وعندما أطلقه ، لم يكن لديه أدنى شك ، فى أنه سيصيب هدفه ..

ولكن (فهد) رأى السهم يشق الهواء ، متجهًا نحو (فارس) ..

وبكل قوته ، صرخ :

- أطلق صرخة مباغتة ، انتفض لها جسد (فارس) ، وهتف :

- ربّاه ! ما الذى ..

وقبل أن يكتمل هتافه ، أصابه السهم ..

واخترق جسده ..

ولكن ليس فى موضع القلب ..

لحسن الحظ والطالع ..

لقد اخترق السهم كتف (فارس) ، ودفعه معه إلى الأمام ، لينغرس فى جذع الشجرة ، الذى ارتطم به بطلنا فى عنف ..

وصرخ (فهد) مرة أخرى ..

أطلق صرخة ، حملت كل غضب وألم ومرارة الدنيا ..

وانقبضت عضلات ذراعيه عن آخرهما ، وهو يجذب أغلاله المعدنية ، فى نفس اللحظة التى هبّ فيها القشتاليان النائمان من رقادهما ، واستلا سيفيهما فى توتر مذعور ..

أما (هيلموت) ، فقد أطلق سهمه ، ووثب من أعلى الشجرة ، إلى متن جواده ، وهو يطلق صيحة قتالية أخرى ، قبل أن يجذب عنان جواده ، وينطلق به نحو الشجرة ، التى قيّدوا إليها (فهد) ، والتصق بها (فارس) ..

وبمنتهى الشراسة ، انقضّ القشتاليان على (فارس) ، الذى ألصقه سهم الجرمانى بجذع الشجرة ، وأعجزه عن الحركة ..

ومرة أخرى ، صرخ (فهد) ، فى غضب عاجز

مرير ؛ لأنه لا يستطيع إنقاذ سيّده ومولاه ، وابن ربيب نعمته الراحل ، وأمير (قرطبة) الأسطورى ..

أما (فارس) ، فقد أطلق صرخة أخرى ، وهو يجذب جسده بعيداً عن جذع الشجرة ، فى محاولة لانتزاع السهم منه ، بعد أن عجزت يداه عن بلوغه..

ولكن القشتاليين لم يمهلاه..

لقد هويا بسيفيهما ، بكل عنفهما وشراستهما ..

وجذب (فارس) نفسه بقوة أكثر ، وهو يثب بإحدى قدميه ، ليركل سيف أحد القشتاليين ، ثم دارت فى محاولة لضرب سيف الثانى ..

ولكن السيف انحرف فحسب ، وأصاب فخذه إصابة عنيفة ، تفجّرت معها الدماء فى غزارة ..

وتراجع القشتالى ، ليهوى بسيفه ثانية ، فصرخ (فارس) ، وهو يدفع جسده إلى أعلى ، ثم يخفضه دفعة واحدة ..

ومع تلك الحركة المعقّدة ، تحطّم السهم ، تاركاً مقدمته المغروسة فى جذع الشجرة ، فى حين ظلّ ما تبقى منه بارزاً من كتف (فارس) من الخلف ..

وفى نفس اللحظة ، هوى القشتالى بسيفه ..

ووثب (فارس) بعيداً ، وهو يستلّ سيفه ، ويضرب به فى قوة ، دفاعاً عن حياته ..

وتفجّرت الدماء من صدر القشتالى ..

وتدفّقت من بين شفتيه ..

وجحظت عيناه عن آخرهما ..

ثم هوى جثّة هامدة ، عند قدمى (فارس) ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها الجرمانى ، وأطلق صيحة قتالية ، وهو ينقضّ بجواده على (فارس) ، ويركله بكل قوته ، فى كتفه المصابة ، وهو يهوى فى ذات الوقت ، بضربة عنيفة من سيفه ، على سيف بطلنا ، ويطيح به بعيداً ..

وقبل أن يندفع (فارس) لاستعادة سيفه ، وثب (هيلموت) أمامه حاملاً سلسلة معدنية ، تنتهى بكرة من الحديد ، وهو يقول فى سخرية :

ـ أما زلت تصرّ على مواصلة القتال أيها الأندلسى ؟!

ومع نهاية قوله ، رفع سلاحه الجديد ، وأداره فى الهواء ، ثم هوى به على كتف (فارس) المصابة ..

وعلى الرغم من الآلام الرهيبة ، وعنف الضربة ،

التى ألقت به مترين كاملين ، لم تنطلق من حلق (فارس) صرخة واحدة ..

لقد عضّ شفتيه ليكتم آلامه ، وهو ينهض مسرعًا ، والسهم مازال يبرز من كتفه ..

وفى استهتار ساخر متشفٍ ، اتجه (هيلموت) نحوه ، قائلاً :

- عيبكم أيها الأندلسيون أنكم لا تعترفون قط بالهزيمة ، وتصرّون على مواصلة القتال ، مهما تعقّدت الأمور .. إننى لا أستطيع فهمكم أبدًا .

ثم رفع سلاحه ، مضيفًا فى شراسة :

- إلا كموتى .

هوت الكرة المعدنية ، ولكن (فارس) مال جانبًا بمنتهى الخفة ، على الرغم من إصابته ، ثم اندفع نحو الألمانى ، صائحًا :

- وماذا عنا كأحياء ؟!

اتسعت عينا الألمانى فى دهشة وألم ، عندما ارتطم رأس (فارس) ببطنه ، ودفعه أمامه مترين كاملين ، قبل أن يسقطا معًا ..

وبكل غضبه ، هتف الألمانى ، وهو يرفع سلاحه :

- أيها العربى الـ ....

قاطعه (فارس) ، وهو يمسك معصمه ، ويلويه فى قوة ، فى نفس اللحظة التى يهوى فيها على فكه بلكمة كالصاعقة ، هاتفًا :

- دعنى أريك ما نفعله .

أفلت الألمانى سلاحه مرغمًا ، فى حين تراجع (فارس) ، ودار حول نفسه ، ليركله فى صدره ، مستطردًا :

- مع الأوغاد أمثالك .

كانت الركلة من القوة ، حتى إنها ألقت (هيلموت) مترين آخرين إلى الخلف ، ليسقط على ظهره فى عنف ، ثم يهبّ واقفًا على قدميه ، ويستلّ سيفه فى غضب ، هاتفًا :

- لست أدرى أين تعلّمت هذا أيها العربى .

تحرّك (فارس) فى سرعة ، محاولاً التقاط سيفه ، وهو يقول فى صرامة حازمة :

- وربما لن تدرى أبدًا أيها الجرمانى .

رآه (هيلموت) يندفع نحو السيف ، فانطلق نحوه ، وهو يلوّح بسيفه ، صائحًا فى غضب ثائر :



وبسرعة وخفه مبهرتين ، التقط سيفه من الأرض

ـ لن تنجح أبدا أيها العربى .

وعلى الرغم من آلامه ، والسهم الذى ما زال يبرز من كتفه ، وثب (فارس) ..

وثب وثبةً هائلة مدهشة ، ليختطف سيفه الملقى وسط العشب ، صائحاً :

ـ لم تقل : بإذن الله أيها الجرمانى ..

وبسرعة وخفة مبهرتين ، التقط سيفه من الأرض ، وقفز واقفاً على قدميه ، و ....

وفجأة ، انطلقت من خلفه صرخة (فهد) ..

صرخةً مفعمةً بالغضب والحدة والثورة ..

صرخة فارس عاجز مقيد ..

ومع الصرخة ، وعلى نحو غريزى محض ، التفت (فارس) ..

وقبل حتى أن تكتمل التفاتته ، كان آخر القشتاليين يهوى على رأسه بهراوة ثقيلة سميكة ..

وارتج رأس (فارس) فى عنف ..

واقتلعته الضربة من مكانه اقتلاعاً ..

وألقته أرضاً فى عنف شديد ..

وتفجرت من رأسه الدماء الساخنة ..

وعندما حاول النهوض ، وثب إليه (هيلموت) ، وركله فى وجهه بكل قوته ، صائحًا :

ـ استسلم أيها العربى .. استسلم .

سقط رأس (فارس) مرة ثانية فى عنف ، وانقض عليه القشتالى بهراوته ، وهو يطلق صرخة شرسة ، امتزجت بصرخة (فهد) الهادرة ، وهو يشاهد مولاه يسقط أمام عينيه ، والفارسين ، الجرمانى والقشتالى ، ينقضان عليه بلا رحمة ..

وبضربة قوية ، أطاح (هيلموت) بسيف (فارس) ، فى نفس اللحظة التى ضرب فيها القشتالى ذلك السهم ، البارز من كتفه ، فدفعه فى لحمه أكثر وأكثر ..

وتفجرت الدماء مرة أخرى ..

وعض (فارس) شفتيه ، كاتمًا صرخة ، انطلقت من حلق (فهد) ، الذى انقبضت كل عضلاته فى عنف ، مع فرط غضبه وثورته ..

وبلهجة قاسية صارمة ، هتف الجرمانى :

ـ اخرس أيها الزنجى .. اخرس وإلا قطعت لسانك بلا رحمة .

أطلق (فهد) صرخة غضب عاجزة أخرى ، غير مبال بتهديد (هيلموت) ، فصاح القشتالى ، وهو يرفع هراوته بكل قوته :

ـ أتأبى الصمت .. شاهد رفيقك يلقى مصرعه أمامك إذن .

قفز (هيلموت) إلى الأمام بغتة ، وأمسك معصم القشتالى ، وهو يصرخ فى وجهه ، بكل غضب وحدة الكون :

ـ ماذا ستفعل أيها التعس ؟!

صاح القشتالى فى عصبية :

ـ سأقتل ذلك الفارس الأبيض ، الذى أذاقنا الهوان كثيرًا .

صرخ (هيلموت) ، وهو يدفعه بعيدًا فى غضب :

ـ ومن أمرك بهذا ؟!

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يلوح بسيفه ، مستطردًا :

ـ إنه لى ..

أطلق (فهد) صرخة أخرى عنيفة ، وهو يقاوم قيوده فى استماتة ، فرمقه (هيلموت) بنظرة غاضبة صارمة ، وقال :

ـ أنت لست غبيًا أيها الزنجى ، وهذا يعنى أنك عنيد للغاية ..

ورفع سيفه ، مضيفًا فى شراسة :

ـ وسيدفع مولاك ثمن عنادك هذا ..

وأمام ذلك المشهد ، أطلق (فهد) صرخة أخرى .. صرخة رددتها سهول (الأندلس) .

كلها .

* * *

رفع الملك (فرناندو) وشاحه الحريرى عن رأسه ، فى خيمة قائد جيوشه ، ولوّح بيده ، قائلا :

ـ أسرع بكأس من الشراب يا رجل .. التسلل من تحت أنف (إيزابيلا) يصيبنى بالظمأ ..

أسرع القائد يناوله الكأس ، وهو يقول فى حيرة :

ـ ولماذا التسلل يا مولاى ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى أدرك الخطأ الذى ارتكبه ، فاستدرك فى ذعر :

ـ معذرة يا مولاى ، ولكننى أتصوّر أن هزيمة الأندلسيين هدف مشترك ، لمولاى (فرناندو) ومولاتى (إيزابيلا) ، وليس من الـ ....

قاطعه (فرناندو) فى سخرية :

ـ وليس من المنطقى أن يخفى أحدهما ما يفعله عن الآخر .. أليس كذلك ؟!

احتقن وجه الرجل ، وهو يغمغم :

ـ عفوك يا مولاى ، إننى ....

قاطعه (فرناندو) بإشارة أخرى من يده ، قبل أن يلقى كأسه فى جوفه ، ويقول فى سخرية :

ـ من الواضح أنك لا تدرى شيئًا عن حياة القصور يا هذا .

وصمت لحظة ، انقلبت خلالها سحنته ، وأطلّت فيها من عينيه نظرة مقت مخيفة ، لم تتلاش تمامًا ، وهو يتابع فى قسوة :

ـ فأنا ومولاتك (إيزابيلا) نتفق فى الهدف ، ونختلف فى الأسلوب.

ثم التفت إليه ، مضيفًا فى صرامة :

ـ هل يمكنك فهم هذا ؟!

أومأ الرجل برأسه ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد يا مولاى .. بالتأكيد .

ألقى إليه (فرناندو) كأسه ، هاتفًا :

- عظيم .. والآن .. أرنى تلك الخرائط .. هيا ..

هتف القائد فى حماس :

- أمر مولاى .

ثم اتجه إلى أحد أركان خيمته ، وأزاح التراب عن أرضيته ، ليكشف صندوقًا من المعدن تحته ، راح يزيح عنه المزيد والمزيد من الأتربة ، حتى أمكنه حمله إلى منضدة كبيرة ، ثم التفت إلى الملك ، قائلاً:

- مفتاحك يا مولاى .

ناوله الملك مفتاحًا ، دسه القائد فى أحد رتاجين كبيرين فى الصندوق ، ثم دس مفتاحه هو فى الرتاج الآخر ، قبل أن يدير المفتاحين معًا .

وفى لهفة ، رفع الملك غطاء الصندوق ، ثم التقط واحدة من الخرائط الملفوفة داخله ، وفردها على مائدة أخرى ، وراح يتأملها بضع لحظات ، قبل أن يقول فى اهتمام :

- عظيم .. كلها خرائط سليمة .. أليس كذلك ؟!

أجابه قائده فى احترام :

- كل شبر منها اختبره جواسيسنا يا مولاى ، حتى ليمكنك القول إنها أكثر الخرائط دقة، فى عصرنا هذا.

أومأ الملك برأسه مستحسنًا ، وهو يقول :

- عظيم يا قائد الجيوش .. عظيم .

والتقط كأسه الفارغة ، ملوحًا بها ، فأسرع القائد يملؤها ، فى حين برقت عينا الملك ، وهو يقول :

- فى هذه الحالة ، يمكننى أن أجزم بأننا سنلقن هؤلاء العرب أقسى درس ، فى حياتهم كلها .

وتراقصت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو يضيف :

- وآخر درس .

قالها ، ورفع كأسه ، هاتفًا :

- نخب (غرناطة) القشتالية .

وجرع كأسه دفعة واحدة ، ثم راح يراجع مع قائد جيوشه تفاصيل الخطة السرية الجديدة ..

خطة الزحف نحو (غرناطة) بأسلوب جديد ..

وعنيف ..

للغاية ..

* * *

« أبى .. هل أتى ؟! »

ألقت الأميرة (جميلة) السؤال على والدها ،

وأنفاسها تعلو وتهبط فى انفعال ، فالتفت إليها الأمير (ابن الأحمر) ، وقال :

- ليس بعد يا بنيتى .. ليس بعد .

اتسعت عيناها فى شىء من الارتياع ، وهى تهتف ..

- رباه ! هل ....

قاطعها فى حزم :

- لا تسبقى الأحداث .. إنه لم يعد من مهمته بعد .. هذا كل ما هناك .

تصاعد الحزن إلى ملامحها ، وهى تلقى جسدها على أقرب مقعد إليها ، قائلة فى أسى شديد ، ولهجة تقطر مرارة :

- ولكن الوقت يمضى فى سرعة .

- وافقها الأمير بإيماءة من رأسه ، وهو يقول فى توتر :

- هذا صحيح .. والقشتاليون يتحركون بنشاط غير عادى ، ويستعدون لضرب ضربتهم القاصمة .

أمسكت (جميلة) يد والدها ، قائلة بصوت مرتجف :

- لا ينبغى أن تسمح لهم يا أبى .. لا ينبغى أن تفعل .

زفر الأمير فى مرارة ، وهو يقول :

- إننى أبذل قصارى جهدى يا بنيتى .

ثم اتجه إلى شرفة قصره ، ورفع عينيه إلى القمر ، الذى بدأ رحلته نحو النصف الثانى من السماء ، قائلاً :

- المشكلة أن الأمر ، حتى هذه اللحظة ، ما زال مجرد سر ، لا يعرفه سوانا ، والخطر ، كل الخطر ، أن يؤدى الوقت إلى إفشاء السر ، مما سيسبب حالة من الفزع لا مثيل لها ، بين عامة الناس .

ارتجفت شفتاها ، وهى تتمتم :

- وأى فزع ؟!

زفر الأمير مرة أخرى ، قبل أن يقول :

- صدقت يا بنيتى .. وأى فزع ؟!

وصمت بضع لحظات ، متطلعًا إلى القمر ، ثم لم يلبث أن تابع فى توتر بالغ :

- أنا نفسى لم أصدق ما أخبرونى به ، لولا أن رأيت عينة مما سيحدث بنفسى ، ومنذ تلك اللحظة ،

وأنا أشعر بالسر يجثم علـى صدرى وأنفاسى ، حتى ليكاد يزهقها .

هتفت الأميرة (جميلة) فى هلع :

ـ بعدًا للشر عنك يا أبى .

تنهّد ، قائلاً فى مرارة :

ـ للأسـف يا بنيتى .. الشر صـار قريبًا .. قريبًـا جـدًا .

وعاد يرفع عينيه إلى السماء ، مكملاً :

ـ والأمل الوحيد ، بعد اللّـه (سبحانه وتعالى) ، هو أن يعود (فارس) .. وأن يتولّى المهمة بنفسه.

خفق قلبها مرة أخرى فى عنف ، عندما أتـى على ذكر (فارس) ، وامتلأ عقلها كله بصورة هذا الأخير ، وانطلق عقلها يهتف فى أعماقها :

ـ نعم .. الأمـل فى أن يتولّـى (فـارس) المهمـة بنفسه ..

هذا لو عاد من مهمته الحالية ..

على قيد الحياة ..

* * *

لم يكن من الممكن أبدًا أن يحتمل (فهد) كل هذا ..

لـم يكـن مـن الممكـن أن يـرى (فـارس) أمامـه ، تحت رحمة خصم جبار لا يرحم ..

لذا ، فقد تفجّرت براكين الدنيا فى عروقـه ، التى انتفخت ..

وانتفخت ..

وانتفخت ..

وانقبضت عضلاته على نحو لم يحدث من قبل .. قط ..

ومع صرخاته الثائرة الغاضبة ، انقبضـت عضلاتـه أكثـر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفـى اللحظـة التـى ارتفـع فيها سيف الجرمـانى ، فـوق رأس (فـارس) ، انطلقـت مـن حلـق (فهـد) صرخة رهيبة ..

وانقبضت عضلاته إلى حدها الأقصى ، و ....

وتحطمت أغلاله بغتة ..

وفـى مشـهد لا مثيل لــه ، انقـضّ (فهـد) علـى الألمـانى ، كنمـر ثائر جريـح ، وهـو يطلـق صرخة

هادرة ، انتفض لها جسد (هيلموت) ، وهو يتراجع هاتفًا فى ذهول :

- مستحيل !

أما القشتالى ، فقد استلّ سيفه ، وقفز يواجه (فهد) ، وهو يضرب بكل قوته ، صائحًا فى غطرسة صارمة :

- توقّف أيها الزنجى الحقير ..

أصابت ذبابة سيفه صدر (فهد) ، وصنعت فيه جرحًا حادًا طويلاً ، جعل هذا الأخير يطلق صيحة قتالية غاضبة ، ارتجّت لها أشجار المنطقة ، قبل أن ينقضّ على القشتالى ، ويمسك يده ، ثم يديرها فى عنف ، جعل القشتالى يصرخ فى ألم مذعور ، صرخة امتدت على نحو مخيف ، و (فهد) يحمله إلى أعلى بذراعيه ، ثم يلقيه ليدق عنقه بصوت مخيف ..

واستدار يواجه الجرمانى ، الذى لوّح بسيفه ، هاتفًا :

- لست أدرى كيف فعلتها أيها الزنجى ، ولكن (هيلموت) ليس بالخصم السهل .

انحنى (فهد) يلتقط سيف القشتالى ، ونظرة

غضب صارخة تطل من عينيه ، فرفع (هيلموت) سيفه ، مستطردًا فى صرامة :

- كما سترى بنفسك .

ومع آخر حروف كلماته ، أطلق (فهد) صرخة رهيبة ..

وانقضّ ..

وبصليل لم تشهده سهول (غرناطة) قط ، التقى السيفان ، وراح الفارسان يتقارعان بعنف شديد ، وكل منهما يكرّ على صاحبه ويفر ..

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الجرمانى قد أدرك جيدًا أن خصمه لا يستهان به ..

بل هو أعنف وأقوى خصم واجهه فى حياته ..

لذا ، فقد راح يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

ومع تراجعه ، انقض (فهد) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

حتى بلغا تلك الشجرة ، التى كان يختفى عندها الألمانى ..

وما إن لامس (هيلموت) جذع الشجرة ، حتى هتف فى ظفر مباغت :

- هذا يكفى أيها الزنجى .

وبوثبة عجيبة ، عبر مترين كاملين ، ثم جذب حبلاً يتدلى من الشجرة ..

ومع جذبته ، هوت شبكة معدنية أخرى من الشجرة ..

فوق رأس (فهد) مباشرة ..

وبكل غضبه وثورته ، أطلق الزنجى صرخة قوية..

وراح يضرب الشبكة بسيفه في عنف ..

ولكن الجرمانى انقض عليه بكل عنفه وشراسته ، صائحا :

- خسرت أيها الزنجى .. خسرت .

وهوى سيفه على (فهد) مرة ..

وثانية ..

وثالثة .

وتفجرت الدماء من كتف (فهد) ..

وصدره ..

وفخذه ..

وفى سرعة مدهشة ، جذب (هيلموت) أطراف الشبكة ، وأحاطها بحبل قوى ، أداره حول جذع الشجرة ، وأحكم رباطه فى قوة ، وهو يقول ساخرًا :

- هيا .. انزف كل قطرة من دمك القذر أيها الزنجى ، حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة ..

ثم قهقه ضاحكًا فى تشفٍ شرس ، مضيفًا :

- هذا أفضل من قتلك كالنعاج .

ومن موقعه ، رأى (فارس) (فهد) يقاتل فى استماتة ، و(هيلموت) يقهقه ساخرًا ، على قيد متر واحد منه ، فاستنفر قواه ، وراح يزحف متجهًا نحو سيفه ، وهو يلهث فى تهالك ، متمتمًا :

- رباه ! لا تسمح له بهذا .. من أجل .. من أجل ..

سعل فى شدة ، وشعر بآلام مبرحة فى كتفه ورأسه ، قبل أن يتابع :

- من أجل (غرناطة) ..

لمحه (هيلموت) من بعيد ، فهز رأسه متمتمًا فى شىء من الحنق :

- ألا يستسلم هذا العربى قط ؟!

زمجر (فهد) فى غضب ، وراح يقاتل بعنف أكثر ، للتخلص من الشبكة ، فهز (هيلموت) رأسه ، قائلاً:

- كلكم مكابرون .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يتابع :

- لذا ، فسيسعدنى أن أقتلكم ، واحداً بعد الآخر .

وأدار عينيه فى مقت رهيب إلى (فارس) - الذى بلغ سيفه بصعوبة - وهو يضيف فى شراسة ..

- وسأبدأ بفارسكم الأبيض .

زمجر (فهد) فى عنف أكثر ..

ولكن (هيلموت) لم يبال ..

لقد حمل سيفه ، واتجه نحو (فارس) فى هدوء غاضب عجيب ..

أما (فارس) نفسه ، فقد أمسك سيفه ، وبذل جهداً خرافياً ، ليقف على قدميه ، فى مواجهة الجرمانى ، الذى واصل التقدم نحوه ، قائلاً فى مقت:

- تباً لكم أيها العرب .. وتباً لعنادكم السخيف .

تماسك (فارس) ، بكل ما يملك من قوة ، وهو يمسك سيفه ، و (هيلموت) يتقدم نحوه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر..

حتى صار هناك متران فقط يفصلان بينهما ..

ولفترة ما ، ظل كل منهما يتطلع إلى الآخر فى صمت ، قبل أن يمسك (فارس) مقبض سيفه بكلتا يديه ، وينعقد حاجباه فى صرامة وإصرار ، جعلا (هيلموت) يقول فى حدة :

- إذن فأنت ترغب فى القتال ..

ثم رفع سيفه ، مستطرداً :

- فليكن أيها العربى .. اتل صلاتك الأخيرة .

قالها ، ورفع سيفه ، وهو يطلق صرخة رهيبة ..

وانقض ..

ومع انقضاضته ، استرجع (فارس) كل ما تعلمه ، فى حياته كلها ..

« أفضل لحظة لمواجهة خصمك ، هى اللحظة التى يهزمه فيها الغضب » ..

« المهم أن تقوم بالفعل المناسب .. وفى اللحظة المناسبة .. »

« لا تجعل قوة خصمك ترهبك .. المهم ليس القوة ، وإنما حسن التصرف .. »

« حركة واحدة صائبة ، تهزم أقوى الأقوياء .. »

« لا يوجد شخص أعزل ، مادام عقله فى رأسه » ..

كل هذه العبارات قفزت إلى رأس (فارس) ، فى ثانية واحدة ..

بل فى جزء منها ..

كل هذا ، و (هليموت) ينقض ..

بكل غضبه ، وعنفه ، واندفاعه ..

وفى اللحظة المناسبة تمامًا ، وبينما كان السيف يهوى على رأسه ، انزلق (فارس) بكل ما تبقىَّ فى جسده من قوة ..

ومع انزلاقه ، ارتفع نصل سيفه إلى أعلى ..

وضرب الجرمانى الهواء بسيفه ..

واختلَّ توازنه ..

وسقط ..

واتسعت عيناه فى ذعر ذاهل مستنكر ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا يمكن أن ...

ثم بتر عبارته بشهقة عنيفة ، عندما غاص سيف (فارس) فى بطنه ، ومزّق أحشائه بلا هوادة ، ليبرز من ظهره ، مع بركان من الدم ..

واتسعت عينا الجرمانى أكثر وأكثر ، وتدفّق الدم من بين شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ فعلتها أيها العربى ..

نطقها ، ثم دفع قبضته فى الأرض ، وجلس على ركبتيه ، والسيف ما زال يخترق جسده ، وبدا وكأن الدماء قد تصاعدت إلى عينيه ، وهو يضيف :

ـ ولكننى لن أذهب وحدى ..

وعلى الرغم من كل ما أصابه ..

ومن السيف الذى اخترق جسده ، من بطنه إلى ظهره ..

ومن الدماء التى تتدفّق منه كالسيل ..

رفع الألمانى سيفه مرة أخرى ، صارخًا :

ـ سنذهب معًا .

كان سيفه يهم بشج رأس (فارس) ، عندما التقطت أذنا هذا الأخير صفيرًا حادًا رفيعًا ..

ثم انغرس سهم فى جسد الجرمانى ..

بل فى قلبه مباشرة ..

وفى هذه المرة ، جحظت عينا (هيلموت) عن آخرهما ..

وهوى جثة هامدة ..

وبحركة أخيرة ، أزاح (فارس) رأسه جانبًا وشعر بنصل سيف خصمه يهوى على الأرض ، على قيد إصبع واحد منه ..

وبكل ما تبقى به من قوة ، أزاح جثة الألمانى عن صدره ، وهو يقول فى ضعف :

- (فهد) .. أأنت بخير ؟!

جاوبته زمجرة (فهد) من بعيد ، وهو يواصل قتاله ، للتخلص من تلك الشبكة ، فانعقد حاجبا (فارس) فى توتر ، وأدار بصره إلى حيث انطلق ذلك السهم ..

ومن وسط الظلام ، برز (فارس) على متن جواد قوى ، يتبعه جواد أسود كالليل ..

ومع تقدم الفارس من دائرة النيران ، اتضحت ملامحه أكثر ، وأكثر ..

وبمزيج من الدهشة والسعادة والفرح ، هتف (فارس) :

- (مهاب) ؟!

ابتسم قائد الفرسان ، وهو يعيد قوسه إلى كتفه ، قائلاً :

- لم يكن من الممكن أن أترككما وحدكما .

ومن بعيد ، انطلق صهيل (رفيق) ، وهو يعدو نحو فارسه ..

واتسعت الصورة أكثر ، لتشمل السهل كله ، وقد تلوَّن الشفق بألوان الشروق ..

شروق شمس جديدة على مملكة (غرناطة) .. العربية .

* * *

(تمت بحمد اللَّه)

9

فارس الأندلس

من البطولات العربية

فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

الطريق إلى قرطبة

- ما سر الرسالة الغامضة ، التى تلقاها (فهد) فى (شنتفى) ؟!
- من ذلك الألمانى ، الذى قاد خطة اختطاف (فهد) ، وإرساله إلى (قرطبة) ؟!
- تُرى هل يصل (فهد) إلى عاصمة القشتاليين ، أم ينجح (فارس) فى إنقاذه ، فى (الطريق إلى قرطبة) ؟!
- اقرا التفاصيل المثيرة ، وعش عبق التاريخ مع (فارس الأندلس) ...

الرواية القادمة سر الأمير

المؤلف

د . نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن فى مصر ٢٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

